السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، الحمد لله ربِّ العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبد الله ورسوله نبينا محمد على آله وصحبه أجمعين. أما بعد:

في هذا الدرس -إن شاء الله- سيتم التعليق على ستة أصول عظيمة للإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله تعالى-، وإن كان كل أصل منها يحتاجُ إلى وقت طويل لكن نظرًا لظروف الدورة فإنه سيتم التعليق عليها بما تيسر، ونشرع فيها الآن.

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللحاضرين وللمسلمين.

قال الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله تعالى- من أعجب العجاب وأكبر الآيات الدالة على قدرة الملك الغلاب ستة أصول بيَّنها الله تعالى بيانًا واضحًا للعوام فوق ما يظن الظانون، ثم بعد هذا غلِط فيها كثير من أذكياء العالم وعقلاء بني آدم إلا أقل القليل.

هذه المقدمة قبل الدخول في الأصول الستة ذكر المؤلف -رحمه الله- قال: من أعجب العجاب؛ وهذا مبالغة فوق مبالغة؛ لأن أعجب صيغة مبالغة، والعُجَاب صيغة مبالغة.

وإنما ذكر الإمام -رحمه الله- ذلك لأن هذه الأصول الستة مع كثرة ما ورد فيها من الأدلة في كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وأيضًا ما دلَّ عليها مما تقرِّره العقول الصحيحة والفِطر السليمة إلا أنه زلَّ في هذه الأصول أقوامٌ، وإن كانوا من الأذكياء ومن العقلاء، إلا أنهم زلُّوا في ذلك، وما ذاك إلا لأن الله تعالى يقول: ﴿مَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ﴾ [الأعراف: ١٨٦]. فالإنسان مهما بلغ عقله ومهما كانت حدة ذكائه فإن الله -عز وجل- إذا لم يشأ هدايته لم يهتدِ، ﴿مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧].

إذًا من أعجب العجاب؛ لأنه وقع فيها في مخالفتها الأذكياء والعقلاء مع أن الله -عز وجل- بينها بيانًا واضحًا للعوام، والمقصود العوام: إما أن يُراد به العامة تشترك فيه العلماء وغيرُه، يعني أنه بيَّنها للناس أجمعين بأساليب متعددة وطرائقَ مختلفة؛ ليفهم الجميع ما أراده الله -عز

وجل- منهم، سواء كان عالمًا أو عاميًّا، ويحتمل أنه يريد للعوامِّ أن هذه الأدلة واضحة للعوام فكيف يغلط فيها الأذكياء والعقلاء والعلماء أيضًا؟

لأن وقع من بعضهم مخالفة في بعض هذه الأصول وإن كانوا ينتسبون إلى العلم، وهذا هو سبب تعجُّب المؤلف -رحمه الله- من ذلك، وقدم بهذه المقدمة التي فيها التعجب؛ ليجعل، أو ليلفت انتباه القارئ إلى أن يتأمل هذه الأصول الستة، وليس يتأمل هذه الأصول الستة في هذه الرسالة، وإنما هذه الرسالة ما هي إلا إشارةٌ إليها، فعليه أن يطلبَ هدى الله -عز وجل- في كتاب الله وسنةِ نبيه صلى الله عليه وسلم؛ لأن الإنسان مع الغفلةِ والإعراض لا يُؤمَنُ عليه أن يزلَّ في هذه الأصول العظيمة التي هي من أهمِّ أصول الدين، بل الدين مبنيٌّ عليها كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى؛ ولهذا الإمام -رحمه الله- لما ذكر هذه المقدمة كما قلنا يلفت الانتباه الى الاهتمام بهذه الأصول الستة، وهذه الأصول الستَّة التي ذكرها الإمام -رحمه الله- هي قائمة على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وإن كان لم يستشْهِد لها إلا في مواضع يسيرة، ولكن هو أحالَك بما أجملَه من أن الله -عز وجل- قد بيَّنها بيانًا واضحًا، وسيأتي تَكرار المؤلف لهذه العبارةِ أو قريبٍ منها، فيما يذكره من هذه الأصول الستة.

ثم يأتينا سؤال: لماذا ذكر الإمام -رحمه الله- هذه الأصول الستة على وجه الخصوص، والجواب عنها ذلك: أن عدم معرفة هذه الأصول وفهمِها على الوجه المطابق للشرع هو الذي آل بسببه أمرُ المسلمين إلى ما آل إليه، مما هو معلوم منذُ قرون متطاولة.

وأيضًا ذكرها المؤلف؛ لأن الشرع الحكيم اهتم بها اهتمامًا بالغًا، حتى بلغت حدَّ التواتر القطعي، ولم يختلف فيها اثنان من العلماء؛ فلذلك المؤلف -رحمه الله- ذكر هذه الأصول، لعله ذكرها، أو اختارها، أو اصطفاها من بين أصولٍ كثيرةٍ لهذين المعنيين، إضافة إلى ما تقدم ذكرُه من أنَّ هذه الأصول الثلاثة راجعةٌ إلى أصليْن عظيمين، وهما: الإخلاص والمتابعة، وهما أصل دين الله -عز وجل- لأنهما ركنا العبادة.

وهذه الأصول الستة، الثلاثة الأولى منها المتعلقة بالإخلاص والاجتماع في الدين الذي مقتضاه الاتِّباع لكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، والسمع والطاعة، هذه أصول ثلاثةٌ:

أصول ثلاثة، ثم بعدها أصول ثلاثة؛ الأصول الثلاثة تتعلق بمعرفة العلم والعلماء والفقه والفقهاء، والمتعلقة بمعرفة الأولياء والمتعلقة بالشُّبه التي يضعها أعداءُ السُّنن؛ لعدم الفهم، لئلا يُفهم القرآن على وجهه، هذه الثلاثة الأخيرة هي ليست مقصودةً بالعمل ولكنها وسيلةٌ إلى تحقيق الأصول الثلاثة الأولى؛ لأن العلم يُراد به العمل، ومعرفة الأولياء يُراد به معرفة حقيقةِ الوليِّ حتى يكونَ التعاملُ معه على مقتضَى ما أراده الله، لا أن يكونَ من باب محبةِ الصَّالحين الشركيَّة، كما سيأتي -إن شاء الله تعالى- وكذلك الشُّبهة التي تمنع الإنسان من النظر في كتاب الله وتُحيل بينه وبين فهم ما أراده الله -عز وجل- منه، هذه الشبهة ليست مقصودةً لذاتها ولكن يريد الإمام -رحمه الله- دفعَ هذه الشبهة التي وضعها الأعداءُ، ويبيِّن أن من أسباب عدم فهم الأصول الثلاثة هو: الشبهة التي وضعها هؤلاء، وعدم فهم الأصول الثلاثة هو: الفهم الفاسد والخاطئ لمعنى الأولياء، وعدم فهم الأصول الثلاثة؛ بعني للخطأ في فهم معنى العالِم والفقيه، والعِلم والفقه، فالخطأ في الثلاثة الأولى سببه عدم فهم الثلاثة الأصول التالية لها.

قَالَ -رَحِمَهُ الله- الأَصْلُ الأَوَّل إِخْلَاصُ الدِّينِ لِلَّهِ تَعَالَى وَحدَهُ لَا شَرِيكَ لَه وَبَيَانُ ضِدِّهِ الَّذِي هُوَ الشِّرْكُ بِاللهِ وَكَوْن أَكْثَر القُرْآنِ فِي بَيَانِ هَذَا الْأَصْلِ مِنْ وُجُوهٍ شَتَّى بِكَلَامٍ يَفْهَمُهُ أَبْلَدُ العَامَّةِ، ثم لمَّا صار على أكثر الأمة ما صار أظهر لهم الشيطان الإخلاصَ في صورة تنقُّص الصالحين والتقصيرِ في حقوقهم، وأظهَر لهم الشرك بالله في صورة محبة الصالحين واتِّباعهم.

هذا هو الأصل الأول، الأصل الأول يتعلق بالإخلاص، فما هو الإخلاص؟

الإخلاص: فُسِّر بتفسيراتٍ، منها: إفراد الله --عز وجل- بالعبادة- ومنها: إفراد المعبودِ عن غيره، ومنها: التبرِّئُ عن كلِّ معبودٍ سوى الله، والتعريفات كلها ترجع إلى شيء واحدٍ، ولهذا شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- يقول: حقيقة الإخلاص هو الإسلام؛ هذا معنى الكلام، أو بعض التعريفات التي ذكرناها، لكن شيخ الإسلام؛ يعني صرح أن الإخلاص قال حقيقته: الإسلام؛ لأن الإسلام: هو الاستسلام لله تعالى لا لغيره، الاستسلام لله وحده، لا لغيره، وهو الذي ذكره الله في قوله على جهة التَّمثيل: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [الزمر: ٢٩]؛ فالذي يعبدُ الله وحدَه لا شرك له كالذي يملِك الرقبةَ

أو المملوكَ دون أن يشاركَه فيه أحدٌ فلا تَحصُل له مُنازعة، وأما الذي يُشرك مع الله غيرَه فهو كالشَّريكين إذا اشتركا في ملكِ يمينٍ؛ كلٌّ منهما له نصيبٌ فيه، فهما يتنازعان في الاستفادة من منافعه، يتنازعان عند بيعه، ويتنازعان في صور كثيرة؛ لأنه ليس حقًّا خالصًا لأحدهما بخلاف الأول، وهكذا الحال بالنسبة للمشرك والمسلم:

المسلم وحَّد الله وأخلص له العبادة؛ فهي خالصة لله تعالى.

والمشرك أشرك معه غيرَه؛ فالموحِّد استسْلم لله تعالى دون غيره، هذه الرقبة هي ملكٌ لواحدٍ، فهي خالصة له، لكن إذا كانت لاثنين لم تكن خالصةً لأحدهما، بل له شريك معه، وهذا مَثل المشركِ الذي يجعل مع الله إلهًا آخر.

فالمقصود: أن الإخلاصَ هو -كما قال شيخ الإسلام- هو: الإسلام، وهذا تدل عليه أدلةٌ، كما سيأتي إن شاء الله تعالى ذِكرُ طرفٍ منها.

والإخلاص معناه: تصفيةُ الشيء وتنقيتُه من الشوائب، الشيء الخالص: هو الشيء الذي نُقِّيَ من الشوائب؛ إذًا فتوحيد المسلم لا يُخالطه شِركٌ؛ لا قليل ولا كثير، ولا كبيرٌ ولا صغيرٌ، ولا جليٌّ ولا خفيٌّ، هو قد أخلص لله بمعنى: نقى توحيده من هذه العلائق.

وقد قرَّر الله -عز وجل- الاخلاص في كتابه فأخبرَ الله -عز وجل- أنَّ الدين الخالصَ له وحده لا شريك له، ﴿ أَلَا لِلهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾[الزمر: ٣]، ثم إن الله -عز وجل- أيضًا ذكر عبادتَه، ذكر الأمر بعبادتِه مقرونًا بالإخلاص ﴿ فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴾[الزمر: ٢]، ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [البينة: ٥]؛ إذًا فهو أمرنا بالعبادة مقرونةً بالإخلاص؛ إذًا فهو أمر بالإخلاص، فالله يقول: لا تَعبد الله حالة كونك مخلصًا له، فما معناه؟ معناه: أمرٌ بالإخلاص.

وجعل اللهُ -عز وجل- الإخلاصَ شرطًا في الإيمان؛ لأن الله -عز وجل- لما ذكر قال: ﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا إلا الذين تابوا وأصلحوا وأخلصو دينهم لله فأولئك مع المؤمنين﴾ [ ]، فلا ينتفي عنهم النفاق والكفر إلا بشرط الإخلاص لله -عز وجل- في التوحيد، وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين.

ووصفَ -سبحانه وتعالى- بالإخلاص أنبياءَه كما قال تعالى في سورةِ مريمَ عن موسى -عليه السلام-: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ﴾ **(مُخْلِصًا)** في قراءةٍ؛ هما قراءتان سبعيتان، (كان مخلِصا) ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴾ [مريم: ٥١]، القراءة الثانية هو (كان مخلَصًا)؛ (ومخلَصا ومخلِصًا) متلازمتان؛ لأن من أخلص لله أخلصَه الله واصطفاه، ومن كان مخلَصًا مصطفًى من الله فلم يبلغ هذه المرتبة إلا بإخلاصه لله تعالى؛ وهذا ثمرةٌ من ثمراتِ الإخلاص أن العبد إذا أخلصَ لله اصطفاه الله -عز وجل- واجتباه ورفَعه؛ ولهذا ينبغي للمسلم أن يهتمَّ بشأنِ الإخلاصِ، وأن يُجدِّدَهُ دائِمًا في نفسه ويُقوِّيه؛ ولهذا قال الله تعالى في شأن إبليس: ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٣٩، ٤٠]؛ وهذا ثمرة من ثمرات الإخلاص: أن الله -عز وجل- يصرفُ عن العبد كيدَ الشيطان بسبب إخلاصه.

قال تعالى في يوسف عليه السلام: ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾؛ وفيها قراءتان: ("المخلَصين" و"المخلِصين")، فيوسف -عليه السلام- صرَف الله عنه الفحشاء ونجَّاه من مراودة امرأة العزيز له بسبب إخلاصه لله -عز وجل-، فهو أخلص لله فاصطفاه فصرفَ عنه السوء؛ ولهذا قال: ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ أو (المخلِصين؟).

وهذا الإخلاص -كما قلنا- معناه: هو الإسلام الذي هو الاستسلام والتوحيد، وهذا المعنى، معنى الإخلاص قرَّره الله -عز وجل- في كتابه بوجوهٍ متعددةٍ بل كثيرة جدًّا، لكن لعلنا نذكرُ طرفًا منها لإشارة المؤلف -رحمه الله- إلى ذلك.

فأولًا: أن الله -عز وجل- بيَّن بيانًا لا لبسَ فيه، وهو واضح الدِّلالة أن الإخلاص هو توحيد الله (لا إله إلا الله)؛ لأن الله قال في سورة البيِّنة: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [البينة: ٥]، وفي سورة التوبة قال: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]؛ إذًا ما هو الإخلاص؟ هو: توحيد الله -عز وجل- والشهادة له بالوحدانية اعتقادًا وقولًا وعملًا، هذا بيان الله -عز وجل- فكلمة الإخلاص هنا بيَّنها الله -عز وجل- في الآية الأخرى التي في سورة التوبة، والمعنى فيهما واحد؛ فبيَّنت سورة التوبة أن الإخلاص: أن تجعل الله -عز وجل- واحدًا لا شريك له؛ لأن الله -عز وجل- ذكره، تبينه قال: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا

لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا ﴾ [التوبة: ٣١]، وقال في آخر الآية: ﴿ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١]؛ فأثبتَ ألوهيته وتفرَّده بها في البداية، وفي آخر الآية: نزَّه نفسه عن الشريك، وإذا نزَّه نفسَه عن الشريك فمعناه أنه -سبحانه وتعالى- هو المتوحِّد أو هو الواحد الذي يُعبد دون ما سواه، وبينهما قوله تعالى: ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾، وهذه فيها نفي وإثبات، نفي العبودية عما سوى الله وإثباتها لله عز وجل.

ثم أيضًا مما بيَّنه القرآن أن الله -عز وجل- قابَل بين الإخلاص والشرك، والشيء يُعرف بضدِّه، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، فدلَّ ذلك على أن الإخلاص مقابلُ الشرك، والشركُ ما هو؟ هو: أن تجعل لله تعالى شريكًا. إذًا فالمطلوب منك: ألا تجعل لله شريكًا بل تكون مخلصًا لله؛ إذًا فإخلاص العبادة لله هو: ألا تجعلَ لله شريكًا، وهو معنى الإسلام، وهو معنى إفراد الله -عز وجل- بالعبادة.

وأيضًا قال الله تعالى عن الوجه: ذكر الله -عز وجل- هذا الإخلاص بمعنى إسلام الوجه: ﴿ وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ﴾ [لقمان: ٢٢]، العروة الوثقى هي: لا إله إلا الله، ﴿ وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾، فهذه الآية فيها التوحيد والاتِّباع:

التوحيد في قولِ: ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ﴾.

وإسلام الوجه لله معناه: الإذعان والانقياد، وجعْلُ القصدِ وتوجيه القصد في العبادة إلى الله وحدَه لا شريك له، وقوله: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ هذا في الاتباع، وقوله:﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ هذا في الاتِّباع.

قال تعالى: ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ﴾، فهذه الآية تشرحُ لك معنى لا إله إلا الله، وأيضًا تشرح لك معنى الركن الأول من أركان الإسلام بفرعيه: شهادة لله بالوحدانية، ولنبيه بالرسالة.

ورابعًا: جاء الأمر بإقامة الوجه: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم: ٣٠]، ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٥) ﴾ [يونس : ١٠٥]، وهذا إقامة الوجه: هو إسلام الوجه، هو: القصد.

وأيضًا ذكر الله -عز وجل- في بيانِ معنى الإخلاص: أنه الإيمان بالله والكُفر بالطاغوت: ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، إذًا الإخلاص هو: الإيمانُ بالله والكفرُ بالطاغوت، والطاغوت: هو كل ما عُبد من دون الله عز وجل.

و**سادسها**: جاء القرآن بالبراءةُ من كلِّ ما يُعبد من دون الله؛ إذًا، إذَا تبرَّأ الإنسان من كل ما يُعبد من دون الله، مَن يكون عابدًا له؟ يكون عابدًا لله ومُفردًا العباد له، وهذا هو معنى الإخلاص، وهذا جاء في آيات كثيرة: ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ ﴾ [الأنعام: ١٩]، ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ [الكافرون: ١، ٢]؛ وقال الله تعالى عن قوم هود: ﴿ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ ﴾ [هود:]؛ وإبراهيم -عليه السلام-: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧]،﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ﴾[الممتحنة: ٤]؛ وقال تعالى عن إبراهيم أنه قال عن الأصنام: ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الحجر: ٧٧]؛ وقال عن يوسف عليه السلام وعن آبائه: ﴿ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [يوسف: ٣٨].

إذًا فالبراءة من الشرك معناها: الإخلاص لله -عز وجل- والإخلاص معناها: البراءة من الشرك، ومنها أيضًا ما دلَّت عليه الأدلة من إثبات الوحدانية لله -عز وجل-: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ [سورة الإخلاص]، ﴿ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴾[الصافات: ٤]، ﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ [البقرة: ١٦٣]؛ والآيات في هذا كثيرة.

ومنها أيضًا ما ذكره الله -عز وجل- من استحقاقِه للعبودية دون ما سواه: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ [الحج: ٦٢]، وفي الآيتين الأخريين: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾ [لقمان: ٣٠]؛ إذًا: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ ﴾؛ هذا معنى: "إلا الله": ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾، هو "لا إله إلا الله هو".

"لا إلَه" وهذا معنى الإخلاص، معنى الإخلاص: استحقاق الله -عز وجلَّ- العبودية دون ما سواه، غيرُه وإن عُبد؛ لكنه لا يستحقُّ العبوديةَ، الله -عز وجل- سمَّى ما يعبده المشركون آلهةً، لكنها آلهة باطلة، والكلام عن استحقاق المعبود للعبادة وليس عن فعل العبادة له، فهناك أقوامٌ يعبدون الأشجار والأحجار والأوثان والدوابَّ والملائكة والأنبياءَ والصالحين إلى غيرهم، لكن هؤلاء مخلوقات لا تستحق العبادة لكنها عُبدت؛ ولهذا يقول أهلُ العلم: إنَّ خبر لا النافية للجنس في قوله لا إله إلا الله محذوفٌ؛ أي لا إله حقٌّ إلا الله ، ليس لا إله موجود. لا، غلطٌ؛ لأن الآلهةَ موجودةٌ، هذا ردٌّ على القرآن: ﴿ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [هود: ١٠١]؛ ﴿أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللهِ تُرِيدُونَ ﴾ [الصافات: ٨٦]؛ ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴾ [مريم : ٨١]، الله ذكرهم ﴿ اتَّخَذُوا آلِهَةً ﴾ [الأنبياء: ٢١]، ولكن عبادتَهم عبادةٌ باطلة؛ فالكلام إذًا هو في استحقاق العبودية وليس في وقوع العبودية من المكلَّف لغيره ممن لا يستحقُّ أن يكون إلهًا معبودًا وهو من سوى الله -عز وجل- أو ما سوى الله عز وجل.

أيضًا: ومن بيان الإخلاص في القرآن أن الله -عز وجل- أمر بعبادته ونهى عن الإشراك به: ﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ [النساء: ٣٦]، ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء: ٢٣]؛ ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ [الأنعام : ١٥١].

وأيضًا بيَّن الله -عز وجل- الإخلاص في كتابِه بما ذكره من حصر العبودية فيه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وهذه صيغة حصرٍ؛ لأن الأصلَ تقديمُ الفعل ثم الفاعل ثم المفعول، ولا يقدَّم المفعولُ على فعله إلا لأمرٍ، هذا الأمرُ هنا يُقصد به الحصر، إذا تقدم المعمول على عاملِه صار في الكلامِ حصرٌ، هذا فيه حصرٌ أو قصرُ العبادة على الله وحده لا شريك له؛ إذًا فالذي يُعبَد هو الله؛ ولهذا معنى: ﴿إياك نعبُد﴾؛ أي لا نعبُد إلا إياك وحدك.

وأيضًا من بيان الله تعالى للإخلاص: أن الله -عز وجل- نهى عن ضربِ الأمثال له، واتِّخاذ الأنداد، قال تعالى: ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلهِ أَنْدَادًا ﴾ [البقرة: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلهِ الْأَمْثَالَ ﴾ [النحل: ٧٤]، إذًا فنهانا عن ضرب الأمثال إذَا لم يكن لله مَثَلٌ، ولم يكن له نِدٌّ؛ أي مشابِه أو نظيرٌ كان -جل وعلا- واحدًا، ولهذا -سبحانه وتعالى- واحدٌ في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته لا يشاركه أحد فيها، والشرك يقع فيها جميعها، كما سيأتي بيانه، إن شاء الله تعالى.

ثم بعد ذلك قال الإمام رحمه الله: وبيان ضدِّه- أي ضد الإخلاص- الذي هو الشرك بالله، يعني أن القرآن كما ذكر الإخلاص ذكر ما هو ضد الإخلاص وهو الإشراك بالله -عز وجل-، وبمعرفة الشرك نعرف الإخلاص، وبمعرفة الإخلاص نعرف الشرك؛ ولهذا الله في بعض الآيات ينهى عن الشرك فقط، وفي بعضها يأمر بالعبادة فقط، وفي بعضها يجمع بينهما، إذا جمع فهو تأكيد، وإذا أمر بالعبادة فقد نهى عن الشرك، وإذا نهى عن الشرك فقد أمر بإخلاص العبادة.

نأتي إلى الشرك. ما هو الشرك؟ الشرك: بيَّنه الله في كتابه في آية مجمَلةٍ، ثم في آياتٍ على جهة التفصيل، وأحسن شيء في بيان ما ذكره الله في كتابه من هذه الألفاظ أن تبيَّن بما دلَّ عليه. ما هو الشرك؟ الشرك هو تسوية غير الله بالله؛ لأن الله -عز وجل- ذكر ذلك في القرآن: ﴿ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ * وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ *مِنْ دُونِ اللهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ * فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ * وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ [الشعراء: ٩١: ٩٥]؛ هذه في المشركين، ﴿ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ * تَاللهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [الشعراء: ٩٦، ٩٧]؛ في كفر؛ ﴿ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ *وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ * فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٩٨: ١٠١]؛ ﴿ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ بيَّن كأن هؤلاء هم الكفّار؛ لأنهم تنقطع عنهم الشفاعة؛ إذًا قال: ﴿ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ إذًا فالشرك ما هو؟ هو: تسوية غير الله بالله، وهذه التسوية قد تكون في العبادة، يعني: يصرفُ شيئًا من العبادة لغير الله: يذبح لغير الله، ينظر لغير الله، يستغيث بغير الله، يتوكل على غير الله، يُنيب إلى غير الله، إلى غيرها من العبادات، سواء كانت قلبيةً أو كانت بالجوارح، هي عبادات، في أي عبادةٍ؛ فمن صرف شيئًا من العبادة -ولو كانت أقل القليل ولا يُؤبَه له- فقد أشرك بالله لماذا؟ لأنه سوَّى غير الله بالله -عز وجل- في استحقاقه للعبادة، وهذا أمرٌ القرآن مليءٌ به: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ﴾

[فاطر: ٤٠]؛ سمَّاهم الله الشركاء: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ ﴾ بيَّنهم بقوله: ﴿ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ﴾؛ إذًا فلما دعوْهم صاروا بهذا الفعل قد اتَّخذوهم شركاءَ، ومَن اتخذ مع الله شريكًا فهو المُشركُ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣] كل العبادات لله.

إذًا عندنا التسويةُ في العبادة، عندنا التسوية في المحبَّة والتعظيم، في المحبة والتعظيم: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥]؛ وهذا يتعلق بالمحبة؛ ولهذا العلماء في باب الحَلِفِ بغير الله -عز وجل- ذكروا أن الحالفَ بغير الله إن كان معظِّمًا للمحلوفِ به كتعظيم الله هذا شركٌ أكبرُ، وإلا فهو شركٌ أصغر.

إذًا في المحبة والتعظيم في العبادة.

وفيه أيضًا "شرك الطاعة": ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ ﴾ [التوبة: ٣١]؛ وأيضًا ذُكِرَ هذا الشرك في قول الله -عز وجل-: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تعالوا وِإِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بيننا وبينكم أَنْ لَا نعبدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شيئا﴾ [آل عمران: ٦٤]؛ هذا توحيد العبادة: ﴿ولا يتخِذَ بعضُنَا بَعْضًا أَرْبابًا مِنْ دُونِ اللهِ﴾ [آل عمران: ٦٤]، هذا في شرك الطاعة، وشرك الطاعة ما معناه؟

شرك الطاعة الذي بيَّنه العلماء على قوله تعالى: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ ﴾؛ ليس معناه: كل من أطاع إنسانًا حتى ولو في معصية الله يكون مشركًا؛ لا، الطاعة إنما هو في تحريم ما أحلَّ الله أو تحليلِ ما حرَّم الله، ما معنى الطاعة فيه؟

إذا وافقه على التحليلِ: تحليلِ ما حرَّم الله أو تحريمِ ما أحلَّ الله بقولِه أو اعتقادِه، فمثلًا الزنا محرَّمٌ ولا شك في تحريمه، لو إنسانٌ أمَر ولدَه بأن يزني فزَنَا الولد، لكن الولد يعتقد حُرمة الزنا والأب يعتقد حُرمة الزنا لكنه أمر الولد ولم يقل أحد منهما ولم يقل له: ازنِ فإن الزنا حلال، هذا أمره بمعصية، أمره وأطاعه في معصية، فعليه وزرها لكن لا تُخرجه من ملةِ الإسلام، وليس هذا هو شركُ الطاعةِ المخرجُ من الملة، إنَّما إذا قال إنسان -ولو على سبيل المُزاح والهزل-: إن الزنا حلالٌ مع اعتقاده اعتقادًا جازمًا بأنه حرام، لكن أودَى به لسانُه، في هذا ماذا نقول؟ هذا تحريم ما أحلَّ الله، هذا تحريمٌ، يسمَّى تحريمَ ما أحلَّ الله، فإذا أطاعه أحدٌ في هذا، قال الزنا

حلال ووافقتَه عليه وإن كان هو اعتقد في قَرارةِ نفسه أنه حرامٌ، لكن أنت وافقته عليه بلفظك أيضًا ولم تعتقد أن قوله صحيحٌ، أنت مثله، فهذا كُفر.

ولو أن إنسانًا قال: الزنا حرامٌ، وصاح به في كل مكان لكنه في اعتقاده أنه حلال فهذا التحليلُ تحليلٌ لما حرَّم الله فيكفرُ به، فمَن وافقَ المحلل سواء كان هذا المحلل الذي قال: هذا الشيء حلالٌ وهو حرامٌ أو قال هو حرامٌ وهو حلالٌ، إذا كان هذا الفاعل ذلك قاله معتقدًا، قاله ولو لم يكن معتقدًا فوافقه عليه كفَر مثلَه، ولو اعتقد في نفسِه أنه ليس كما قال، وأن القول الفصلَ إنما هو ما جاء في الكتابِ والسنة.

فينبغي التفريقُ بين تحليلِ الحرام وتحريمِ الحلال المُوجبِ للكُفر أو الشرك، وهو "شرك الطاعة"، فإذا وافق الإنسانُ آخرَ على تحليل الحرام أو تحريمه، سواء وافقه بلفظه أو وافقه باعتقاده وإن لم يتلفَّظ به فهو كافرٌ مخفي.

وهذا -يا أخوان- بعض الناس قد يقول: لا يتصور في أصحاب الطرق الآن الذين يزعمون أنهم يتلقَّون عن الله مباشرةً؛ يعني هم أفضل من الأنبياء؛ لأنهم يأخذون عن الله بدون واسطة.

الله -عز وجل- ما كلّم أحدًا كفاحًا إلا موسى عليه السلام، واختُلف في نبينا صلى الله عليه وسلم هل كلَّمهُ ربَّه ليلة الإسراء بلا واسطة أو لا، وهؤلاء يأخذون كما يفترون بلا واسطة، فإذا قال للمريد: إن هذا الشيء؛ إنه حلال، في القرآن تحريمه وافقه المريد على هذا القول وافقه، وإن لم يعتقد، لكنه وافقه عليه، إذًا هذا أطاعَه في تحريم ما أحلَّ الله، أو العكس.

اذًا التسوية في الطاعة هي "إشراك في الطاعة"، وأيضًا قد تكون التسوية في شيء من خصائصِ ربوبية الله -عز وجل-، الله -عز وجل- نزَّه نفسَه، قال: ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ﴾ [الإسراء: ١١١]؛ دلَّ ذلك على أنه قد يقع الشرك في ربوبيته -سبحانه وتعالى- سواء على جهة الإطلاق أو في بعض خصائص ربوبيته جل وعلا.

وخامسها: قد تكون التسويةُ؛ تسوية الله -عز وجل- بغيره في أسمائه وصفاته؛ ولهذا لما قال الله: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١]؛ ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ إذًا فمَن سوَّى غير الله باللهِ في شيءٍ من أسمائه وصفاته فقد جعل له مماثلًا وشبيهًا ونظيرًا، والله يقول:

﴿فلا فَلَا تَضْرِبُوا لِلهِ الْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤]، ويقول: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]؛ يعني تعلم مماثلًا ونظيرًا وندًّا؟ ما تعلم.

فهذا هو الشركُ، بيَّنه الله -عز وجل- في كتابه، هذا هو معناه الإشراك بالله -عز وجل-؛ فإذا فَهِم الإنسان الشرك فهِم معنى التوحيد أو الإخلاص الذي طلبه الله -عز وجل- منه، ومع بيان الإخلاص ووضوحِه إلا أن كثيرًا من الناس وقعوا فيه؛ لأنهم إما غيَّروا حقائقَ الأشياء، فجعلوا للألفاظ الشرعية ما ليس لها من الحقائق، وهذا نبَّه عليه المؤلفُ -رحمه الله- في الأصول الثلاثةِ الأخيرة، كما سيأتي إن شاء الله، جعلوا لها حقائق ليست هي لها، مثلًا الوسيلةُ التي وردت في القرآن وأجمعَ عليها أهل التفسير من الصحابة فمَن بعدهم في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾ [المائدة: ٣٥]؛ الوسيلة المراد بها: التقرب إلى الله -عز وجل-، المراد به ماذا؟ التقرُّب الى الله -عز وجل- بالأعمال الصالحات، وهؤلاء غيَّروا .... أتوسل بفلانٍ، لكن حقيقتَه ليس هو، يعني قال: أتوسل، أو قال عن هذا الشيء؛ إنه توسَّل وفي حقيقته ليس توسلًا وإنما هو دعاء غير الله أو استغاثةٌ بغير الله، فإذًا طلبُ المددَ من شخص، طلب المدَد من هؤلاء الأمواتِ شرك بالله -عز وجل- يقول: طلبت منه المدد؛ لأن الله -عز وجل- قال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾؛ ومعنى الوسيلة: أن تجعلَ بينك وبين الله واسطة، فهم جاءوا بالاسم لكن وضعوا له حقيقة منافيةً لما دلَّ عليه كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وأحيانًا جاءوا بألفاظٍ وهي كثيرة لكن ليس لها مستند في الشرع لا حقيقةً ولا لفظًا، لا معنًى ولا لفظًا، والذي يطلع على معاجم المصطلحات العقائدية أو المصطلحات الصوفية أو المصطلحات الكلامية أو نحو ذلك، من يَطلعْ عليها يرَ فيها ألفاظًا لم ترِد لا في كتاب الله ولا في سنة نبيه -صلى لله عليه وسلم- فجاءوا بها وجعلوا لها معانيَ، هذه المعاني ليست في كتاب الله، بل هي منافيةٌ لها، ومع ذلك وضعوها واعتقدوها، والله -عز وجل- قد بيَّن لنا هذا الأمر، وهو أمر الإخلاص والشرك، كما سمعتم من هذه الآيات، وأيضًا غيرها كثير جدًّا في كتاب الله لمن قرأ القرآن وتدبَّره. كثيرٌ جدًّا في بيان الإخلاص والتوحيد؛ ففي كتاب الله -عز وجل- غُنية عن كل شيء.

ثم إن الله -عز وجل- قد ذكر مصير المشركينَ ومآل أهل التوحيد، ونهانا عن أن نقع فيما وقع من أهل الاشراك، وسفَّهَ مَن عَبد غيرَ الله بما ذكره سبحانه وتعالى من نقصِ الآلهة التي يعبدونها من دون الله، ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٥، ٩٦]، ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) ﴾ [النحل: ٢٠] ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٩٤) ﴾ [النحل: ١٩٤]، ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ﴾.

وقال تعالى في شأنهم: ﴿ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾، إلى غيرها من الآيات الدالة على: ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل: ٢٠، ٢١] ومع ذلك يُعبدون.

إذًا مَن يلتفت إلى هذه الدلالات القرآنية، ويتأملها يُخشى عليه من الشرك إن لم يكن وقع فيه.

ولهذا ينبغي للإنسان أن يقرأ القرآن وينظر في حال الواقع، فهؤلاء الذين يُعبَدون من دون الله هل تنطبق عليهم صفات الإله؟ لا تنطبق عليهم صفات الإله؛ لأن المعبود هو الذي يخلقُ، المعبودُ هو الذي يتصرَّف، هذا هو المعبود؛ ولهذا إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي [الزخرف: ٢٦، ٢٧]؛ لماذا ذكر الله -عز وجل- قال إن لم يقل إلا الله: ﴿ الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ يعني: أوجدني، فدل ذلك على أن الخالق هو الذي يُعبد: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ [البقرة: ٢٢]، إلى آخر الآية، يعني هذه علّة عبادة الله، لماذا نعبد الله؟ لأنه هو الذي خلقنا، فبالمقارنة الخالق هو الذي يُعبد والمخلوق هو الذي يعبد الله.

طيب نأتي للملائكة: هل هم الخالقون أم المخلوقون؟ هم مخلوقون، الأنبياء هل هم خالقون أو مخلوقون؟ الصالحون هل هم خالقون أو مخلوقون؟ وهكذا البقية، كلهم مخلوقون.

إذًا كلهم مخلوقون، كلهم مربوبون لله، فكيف يعبد الإنسان مخلوقًا مثله ويترك عبادة الخالق وحده لا شريك له؟

قال الإمام -رحمه الله- ثم لمَّا صار على أكثر الأمة ما صار أظهر لهم الشيطان الإخلاصَ في سورة تنقُّص الصالحين والتقصير في حقوقهم إلى آخر ما ذكره.

انتبهوا هذه مهمة، هذه تحتاج لمقدمة، المقدمة ما هي؟ ما هي محبة الصالحين الشرعية وما هي محبة الصالحين البِدعية أو الشركيَّة؟

محبة الصالحين عند أهل الإيمان: أنْ تحبَّ المرأَ في الله؛ لصلاحه وإيمانه، وأن تؤدِّي حقَّ المؤمنِ على المؤمن. هذه محبةُ الصالحين؛ وهؤلاء هم السبعة الذين يُظلهم الله بظله يوم لا ظلَّ إلا ظله: «ورَجُلانِ تَحَابَّا فِي اللهِ اجتمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ»، هذه المحبة ﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (٦٧)﴾ [الزخرف: ٦٧].

هذه هي محبة الصالحين، المحبة الأخرى التي هي غير شرعية بل بدعية وشركية، هي إضفاء ما هو حقٌّ لله أو حقٌّ لرسوله صلى الله عليه وسلم على الصالحين؛ فمثلًا يقول لك: أنت ما تحب الصالحين، كيف ما أحب الصالحين؟! قال لك: لأنك لم تتوسل بهذا الصالح، يعني لم تجعله واسطة بينك وبين الله، لم تطلب منه المدد، تنهى عن دعائه، لا تعتقد فيه أنه يعلم الغيبَ، أو أنه يقدِر على كشفِ الضُّر، إذًا أنت لا تحب الصالحين، هذا أظهر على الشيخ من خصاصِ الألوهية، أو مثلًا يبتدع هذا الإنسانُ بدعة وإن لم تكن كفريَّة، فإذا لم توافقْ هذا المبتدعَ عليها وهو ظاهرٌ فيه الصلاح لامَكَ بعضُ الأغرارِ والجُهال، قالوا لك: أنت لا تحبه، لماذا ما وافقته على هذه البدعة؟؛ هو هذا التشريع من خصائص النبي عليه الصلاة والسلام والذي أُوحيَ به، ليس الناس من الذين يشرِّعون: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ ﴾ [الشورى: ٢١].

إذًا، فنفهم محبة الصالحين الشرعية والبِدعية، محبة الصالحين: تحب الصالح، وتسأل الله -عز وجل- تدعو له وتحب له كما تحبه لنفسك وتقوم بواجب الأخوة نحوه، وتدعو الله -عز وجل- له بالتوفيق والهداية ودخول الجنان، هذا محبة الصالحين.

إذًا، إذاعرفنا محبة الصالحين الشرعية ومحبة الصالحين البدعية ننتقل إلى كلام الشيخ محمد يقول: أظهر لهم الشيطان الإخلاص في صورة تنقُّص الصالحين بمعنى: أنك أيها المخلص لله إذا عبدتَ الله وحده ولم تجعل بينك وبينه واسطة قالوا: هذا يتنقَّص الصالحين، هذا لا يحب الحسين رضي الله عنه؛ لأنه لم يجعله واسطة بينه وبين الله بدعائه، هذا لا يحب أبا بكر، هذا لا يحب عمرَ، هذا لا يحب عبد القادر، هذا لا يحب فلانًا، فجعلوا الإخلاص في -الشيطان أظهرَ لهم الإخلاصَ في- صورة تنقُّص الصالحين، أي أن من أخلص فقد تنقَّص الصالحين، فلهذا هم يشركون حتى لا يتنقصوا الصالحين، وأظهر لهم الشركَ في صورة محبةِ الصالحين، فهم يدعون هؤلاء ويستغيثون بهم ويسألونهم المدَد، ويعتقدونهم من اعتقاداتهم الشركية والكفرية زعمًا منهم أن هذا هو محبة الصالحين، وهذا من تسويل الشيطان لهم، فجعلوا الإخلاص شركًا والشرك إخلاصًا بالغلط في فهمِ معنى محبة الصالحين؛ ولهذا الامام -رحمة الله عليه- في مسائل الجاهلية، أول مسألة ذكرها قال: التعبد بإشراك الصالحين؛ لأن غير الصالحين في الغالب أنهم ما يُشرك بهم، وقد يكون أحيانًا الصلاح حقيقيًّا، وقد أحيانًا يكون الصلاح ظاهرًا لكنه باطنًا ليس بصلاح، وقد يكون صلاحًا مستدعًى وليس صلاحًا حقيقيًّا.

الشاهد: أنه إشراكٌ بالصالحين، هذا هو معنى محبة الصالحين على الوجه الذي ليس بشرعي؛ هذا هو الأصل الأول، طبعًا قول الإمام -رحمه الله- وكون أكثر القرآن في بيان هذا الأصل من وجوه شتَّى، يعني: أي من وجوه متعددة، وهذه الوجوه مختلفة في دلالاتها، متعددة في دلالاتها ومتعددة أيضًا في أساليبها وبيانها، لكن الوقت قصير ما يسمح نذكر ولعل في بعض ما ذكر غُنية إن شاء الله.

نعم الأصل الثاني:

قال -رحمه الله- الأصل الثاني أمر الله بالاجتماع في الدين ونهى عن التفرق فيه فبيّن الله هذا بيانًا شافيًا تتّمه العوام ونهانا أن نكون كالذين تفرقوا واختلفوا قبلنا فهلكوا، وذكر أنه أمر المسلمين بالاجتماع في الدين ونهاهم عن التفرق فيه، ويزيده وضوحًا ما وردت به السنة من

العَجب العُجاب، في ذلك، ثم صار الأمر إلى أن الافتراق في أصول الدين وفروعه هو العلم والفقه في الدين، وصار الأمرُ بالاجتماع في الدين لا يقولُه إلا زنديق أو مجنون.

هذا هو الأصل الثاني، الأصل الثاني: هو الاجتماع في الدين، هو: "الاجتماع في الدين"، وذكر المؤلف -رحمه الله- أن الله -عز وجل- بيّن هذا بيانًا شافيًا تفهمه العوام، والبيان من جهتين؛ من جهة الدعوة إلى الاجتماع ومن جهة الدعوة إلى الاتباع، لأن الاتباع ثمرتُه الاجتماع والاجتماع لا يكون شرعيًّا إلا بالاتِّباع، هذا يجب أن يُفهم؛ ولهذا هذا الأصل فيه الاجتماع وفيه الاتباع، هذا الأصل فيه الاجتماع؛ الاجتماع في الدين، لكن هذا الاجتماع ثمرة الاتباع؛ أي أنه مبنيٌّ على الاتِّباع.

وقد ذكره، قال: بيَّن الله -عز وجل- بيانًا شافيًا تفهمُه العوام، وهذا طبعًا واضح في القرآن من الأمر بالاجتماع والنهي عن التفرُّق والاختلاف، والنهي عن الوسائل المفضية إلى التفرُّق والأمر بالوسائل أو الاشتغال بالوسائل المُفضية إلى الاجتماع والداعية للاجتماع.

وأيضًا ذكر الله حال المتفرقين والمختلفين وذكر الله -عز وجل- حال المجتمعين ونهانى عن التشبه بهؤلاء المتفرقين وأمرنا بالاتباع ونهانًا عن الابتداع، يعني فيها أدلة كثيرة القرآن ملئ بهذا.

وهذا تأكيد كما قلنا المؤلف يكرر قد بيان الله -عز وجل- بيانًا شافيًا تفهمه العوام أو بيانًا شافيًا إلى آخره، لبيان أن هذه من الوصول، هذه أنها من الأشياء المستفيضة المتواترة المقطوع بها في شرع الله عز وجل.

طيب نأتي إلى كلام الإمام رحمه الله، نقول ماذا؟ ما المراد بالاجتماع؟

المراد بالاجتماع: هو التوافُق على الكتاب والسُّنة، الاجتماع في الدين هو: التوافق على الكتاب والسنة، بمعنى: أن يكون هؤلاء المجتمعون يقودُهم كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، يعني: لم يجتمعوا على قبيلةٍ، ولا على وطنٍ، ولا على لغةٍ، ولا على أي شيء آخر، ولم يجتمعوا على غير الكتاب والسنة.

وبهذا تبطلُ كل دعوة تدعو إلى الاجتماع الدينيِّ على غير الكتاب والسنة، مثل ما يقول بعض المعاصرين، يعني نحن والمعتزلة والأشاعرة والخوارج والإباضية إلى آخره من هذه الفرق والنِّحل التي تخالف في أصولها أصول أهل السنة والجماعة، يقول: نجتمع، نجتمع على ماذا؟ نحن بيننا وبينهم فِصال، أكيد، ويجب التفريق بين الاجتماع الدنيوي والديني، الديني ما معناه؟ ما تجتمع معاه، معناه: أنك تفرط في دينك، السُّني يفرط في دينه من أجل المعتزلي والأشعري والخارجي. هذا لا يكون.

إذًا فالاجتماع في الدين معناه: أن نكون مجتمعين على الكتاب والسنة، نتوافق عليها، ولو كان أحدنا في أقصى الشرق والآخر في أقصى الغرب، أو في أقصى الشمال والآخر في أقصى الجنوب، إذا توافقت أنت وإياه فأنتما مجتمعان، حصل الاجتماع الذي أراده الله، يحصل الاجتماع الذي أراده الله، يحصل الاجتماع بأن يصدق عليكم الاجتماع في الدين؛ إمامُكم كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، لكن إذا جئنا مع معتزليٍّ يُقدم العقل على النقل، لا نتوافق معه ولا نجتمع معه.

من جاءنا: من أشعري؛ لا يفسر معنى الإيمان بما يفسره به أهل السنة الجماعة، ولا يرى أن ربه يتكلم بكلام له حرف وصوت، ولا يرى أن ربه مستوٍ على العرش بمعنى أنه فوق العرش، يرى أن ربه في كل مكان: ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤٣) ﴾ [الإسراء : ٤٣]، ونفى جملة صفاتِ الله عز وجل، وما أثبته منها لم يُثبته بالشرع ابتداءً، وإنما أثبته بالعقل، والسمع مؤيدٌ له، ثم في هذا الإثبات تحريفاتٌ، إلى غير ذلك، هل نقول: نجتمع معه دينيًّا؟

بيننا فوارق، بيننا وبينه فوارقُ، لكن ليس معنى هذا أن نعتدي عليه أو ظلمه أو إخراجه من الملة، لا هم من أهل القبلة، هم من أهل الإسلام لكن ليسوا من أهل السنة والجماعة.

فأنت الآن لا تتنازل عن دينك من أجل عقيدة الأشاعرة، أو تترك الإنكار على الأشعري من أجل الاجتماع، غلط، تنكر على الأشعري وعلى المعتزلي وعلى الصوفي وإن كنت لا تكفِّره ولا تُخرجه من ملة الإسلام بل يكون أحيانًا قد يكون مجتهدًا، ولا تصفه حتى بأنه مبتدع، ولكنه خالف الحق، والحق أحب إلى المسلم من الرِّجال؛ فالكلمة هي قضية الاجتماع في الشيء؛

ولهذا قال: الاجتماع في الدين، يعني الكلام ليس مسألة دنيوية، يعني عندك أحيانًا البلد تكون فيه طوائف فيه نصارى وفيه بوذيون وفيه يهود وفيه ملل شتى، وفيه مسلمون، وهو بلد واحد لكنهم يتعاونون في أمور الدنيا فيما بينهم، هذا لا إشكال فيه، النبي صلى الله عليه وسلم عقد تحالفًا مع اليهود، طائفة من اليهود في المدينة وما ضرَّ ذلك، لكن ما تنازل عن دينه عليه الصلاة والسلام ولا حسَّن دينهم، بل أنكرعليهم عليه الصلاة والسلام وبين بطلان دينهم بما أنزله الله، وجاء ذكر الصفات الخسيسة لليهود في كتاب الله ومليئة وهو يتلى في المدينة ليلًا ونهارًا، لم يتنازل عن ذلك، وإن كان عقدَ معهم معاهدات، وكان بينهم وبينه بيع وشراء وقرض إلى آخره.

هذا الأمر، الأمر الدنيوي شيء والأمر الديني شيء آخر، لا تخلط بينهما، يعني بعض الناس إذا قلت مثلًا: نحن لا نجتمع مع الأشاعرة ولا مع المعتزلة ولا مع الصوفية، حمل الكلام على أن هذا تكفير لهم، هذا غلط أبدًا، هذا غلط، حمل هذا الكلام على أنك ما تأخذ ما معهم من الحق، هذا غلط، بل بعضهم عندهم من الحق شيء كثير، فنقبل الحق لكن لا نجتمع معه في الباطل ولا نقرُّه على الباطل.

والاجتماع المحمود الذي ينصر الله به أولياءه: هو الاجتماع في الدين؛ أي على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، إذًا فعندنا اجتماع في الدين ليس في الدنيا هذا اجتماع في الدين، أنت قد تجتمع معه اجتماعًا قبليًّا اجتماعًا وطنيًّا ،هذا اجتماع دنيوي ليس له علاقة بالاجتماع الديني، هذا منفصل تمامًا عن هذا.

إذًا امرنا بالاجتماع في الدين ونهانا عن التفرق فيه؛ يعني عن التفرق في الدين، والمراد به الاختلاف في الدين؛ بحيث تكون كل طائفة لها أصول ولها أسس تقوم عليها، لا تجتمع به مع الطائفةِ الأخرى، مثل ما مثلنا من الفرق المذكورة.

وهذا الأصل بينه الله -عز وجل- قال الله تعالى : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وحبل الله فُسِّر بالإسلام، وبالقرآن، وبالجماعة، وكلها معاني الحق، كلهم على حق ولا تضادَّ بينها؛ لأن كل واحد من المفسرين فسرها ببعض سُورِه، ولكن لا إشكال فيها، ليس بينها تضاد مطلقًا، هذا اختلاف تنوع.

فقوله: ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾، إذا قال : ﴿اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ ﴾ هذا أمر الله -عز وجل- بالاعتصام بحبل الله، الذي هو القرآن، والإسلام والجماعة؛ لأن من كان مسلمًا وتوافق مع غيره في الإسلام، فماذا يكون؟ جماعة، إذا اتبع القرآن وغيره اتبع القرآن كان موافقًا له؛ جماعة، إذًا والجماعة في الشرع ما تكون جماعة إلا إذا قامت على الكتاب والسنة.

إذا قال:﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ ﴾، هذا أولًا أمر بالاعتصام بحبله وهذا الأمر لجميع الأمة، جاء به الواو الجماعة أولًا، ثم أكده بقوله جميعًا، ثم لما أمرنا بالاعتصام نهانا عن ضده: ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾، فهذا أمرٌ بالاعتصام والاجتماع ونَهي عن التفرق.

ثم قال بعد ذلك: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، فأمرنا أولًا بالاعتصام، ونهانا عن التفرق ثم نهانا عن مشابهة المتفرقين بعد ما جاءتهم البينات التي نزلت بها الرسُل، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ﴾ [الزخرف: ١٦] إلى أن قال جل وعلا : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [الزخرف: ١٦، ١٧].

إذًا فالاختلاف وقع بعد العِلم، وأمة محمد صلى الله عليه وسلم بينا لها النبي صلى الله عليه وسلم هذا الأمر بيانًا واضحًا، فإن وقع اختلاف فهو اختلاف بعد علم، وبالتالي من وقع منه ذلك فقد شابه الذي نهانا الله عن مشابهته من أهل الكتاب : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾ [آل عمران : ١٠٥]؛ يعني قال بعض العلماء قوله: واختلفوا هو علَّة التفرق، لأنهم اختلفوا في الكتاب يعني اختلفوا في معاني هذا الكتاب، أورثهم هذا الاختلاف التفرق، كل منهم صار حزبًا وجماعة، كما قال الله تعالى في الآية السابقة ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣١، ٣٢]؛ إذًا هذه الآية، ثم قال تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾، ثم ذكر الله -عز وجل- عقوبتهم : ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾؛ متى هذا العذاب

العظيم؟﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٦]؛ يعني يوم القيامة، قال ابن عباس وغيره: تبيضُّ وجوه أهل السنة وتسودُّ وجوه أهل البدعة، فكلُّ مبتدعٍ له نصيب من هذه الآية، ولكل مستنٍّ بنبيه صلى الله عليه وسلم نصيب من هذه الآية، فبياض وجهه يوم القيامة على قدر اتباعه لنبيه صلى الله عليه وسلم، وسواد وجهه على قدر مخالفته لنبيه صلى الله عليه وسلم.

وأيضًا ذكر الله -عز وجل- هذا الاجتماع كما نهى عن التفرق في قوله تعالى : ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوح والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى و عيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾ [ ]، إقامة الدين ما معناه؟

معناه: الاجتماع فيه؛ لأنهم اجتمعوا فيه: انتشر الدين وظهر، وإذا لم يجتمعوا فيه صاروا متشاكسين متخاصمين متجادلين؛ وذلك يؤدي إلى ضعف الدين وانتشاره؛ ﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ [الشورى: ١٣].

وأيضًا قال الله -عز وجل- : ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ١١٥]؛ فهذا وعيدٌ؛ فيه وعيد لمنْ فارَق الجماعة: ﴿ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾، هؤلاء هم الجماعة، والعقوبة: ﴿نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ١٥٩]؛ وقوله: ﴿ لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ هذه من ألفاظ الوعيد؛ وذلك أن فعلهم هذا ليس موافقًا لفعل النبي صلى الله عليه وسلم؛ فهو بريء من فعلهم، ثم تهدَّدهم ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾[الأنعام: ١٥٩]، وقال الله تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ﴾ [الأنعام: ١٥٣] هذا هو الاجتماع، وهذا هو الكتاب والسنة، وهذا هو الصراط المستقيم: هو الإسلام، هو القرآن، هو السنة، هذا الصراط المستقيم: ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ﴾؛ هذا الأمر بالاجتماع: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ هذا، ونهي عن التفرق والاختلاف.

وقد ثبت عن النبي -عليه الصلاة والسلام- أنه قال: «إنَّ الله يرضَى لكمْ ثلاثة: أن تعبدُوه ولا تشرِكوا بهِ شيئًا، وأن تعتصِمُوا بحبلِ اللهِ جميعًا ولا تفرَّقوا»، هذه الثانية فهذا الأصلان في هذا

الحديث؛ ثم يأتي الآخر، الثالث «وأن تناصَحوا مَن وَلاَّه اللهُ أمرُكم». هذا الحديث مخرَّج في صحيح مسلم لكن لفظ الأخير «وأن تناصَحوا مَن وَلاَّه اللهُ أمرُكم» ليست في صحيح مسلم وإنما في مسند الإمام أحمد وغيره، وأسانيده صحيحة، وإلا أصل الحديث في صحيح مسلم فيه الخصلتان الأوليان، ولكن عدَّها بعض الشراح ثلاثة؛ لأنه جعل ولا تفرقوا خصلة أخرى يعني أن تعتصموا بحبل الله جميعًا هذه خصلة ولا تفرقوا هذه خصلة، أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا واحدة، وأن تعتصموا بحبل الله الثانية، ولا تفرقوا الثالثة، ولكن هذا الكلام فيه نظر الروايات الأخرى الصحيحة الثابتة.

طيب على كل هذه جملة من الأدلة الدالة على ذلك، والنبي صلى الله عليه وسلم لما نزل عليه الوحي بهذا، وبيَّن النبي صلى الله عليه وسلم ما يرضاه الله لنا من الاجتماع وعدم التفرق والاختلاف.

هذا هو من الناحية الشرعية، من ناحية الأمر الشرعي، لكن من الناحية القدَرية، وهي الاستمساك، وهي هل هذه الأمة ستستمسك بهذا أو لا؟، وهي كما جاءت الأخبار سيقع فيها تفرُّق واختلاف، أشار إلى ذلك النبي صلى الله عليه وسلم إشارة في قوله: «أنا أمنةٌ لأمتي فإذَا ذهبتُ جاءَ أمتِي مَا يُوعَدونَ وأصحابي أمنَةٌ لأمتي فإذا ذهبَ أصحابِي جاءَ أمَّتي ما يوعدونَ»، ومعنى ذلك أن بعد النبي صلى الله عليه وسلم بدأت نوع من الفتن ومنها الردة، ثم بعد عصر الصحابة رضي الله عنهم، يعني بدأ يعظم انتشار الفتن في هذه الأمة والتفرق والاختلاف.

وقد بيَّن النبي صلى الله عليه وسلم أن هذه الأمة ستفترق افتراقها سيكون على ثنتين وسبعين، أو على ثلاثٍ وسبعين فرقة، وهذه الفرق كلها في النار إلا واحدة، يعني كلها في النار، ليس معناها أنها مخلَّدة، ولكن معناها أنهم من أهل النار، الذين تمسُّهم النار، لكن أعيانُهم وأفرادهم الله أعلم، لكن هم هذه الفرق كفرقةٍ من أهل النار، استثنى الله -عز وجل- طائفةً واحدة، هذه الطائفة هي: الجماعة، كما جاء ذلك في حديث معاوية في مسند الإمام أحمد قال «افترق أهل للكتب بين على ثنتين وسبعين فرقة وستفترقُ هذه الأمةُ على ثلاثٍ وسبعينَ فرقةً كلُّها في النَّارِ إلا واحدة، وهي الجماعةُ»؛ وهو الأصل الذي يتحدث عنه المؤلف، وهي:

الجماعة، وهذا الحديث الذي ذكره معاوية إسناده حسن، وقد حسَّنه العراقي وابن حجر وابن كثير وغيره.

وأيضًا جاء تفسيرها بالجماعة في أحاديث أُخَر لكن لها ضعف، وبعضها ضعيف جدًّا، ووجاء تفسيرها: بالسواد الأعظم في حديث أبي أمامة عند الطبراني، وظاهر إسناده أنه حسن، والسواد الأعظم من هم؟

هم الصحابة رضي الله عنهم؛ لأنهم في عهد النبي صلى الله عليه وسلم هم السواد الأعظم من هذه الأمة، والمنافقون قلة قليلة، وهذه القلة أيضًا غير ظاهرة؛ فالسواد الأعظم من أمة محمدٍ صلى الله عليه وسلم كانوا على الكتاب والسنة، كانوا على الحقِّ فمعناه: العودة بنا إلى الكتاب والسنة، وهذا معناه ما جاء في حديث عبدالله بن عمرو بن العاص في جامع الترمذي، وقد فسرَ الجماعةَ قال: "ما أنا عليه اليومَ وأصحابي"، وهذه الرواية في إسنادها ضعف عن عبد الرحمن بن زياد الإفريقي، في إسنادها ضعف، لكنها مع السواد الأعظم مع الجماعة تلتئم؛ لأن المعنى واحد، أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كانوا هم الجماعة، هم السواد الأعظم الأكثر في وقتهم: وهم ما أنا عليه وأصحابي؛ فدل ذلك على أن الجماعة المحمودة المجتمعة على الكتاب والسنة، يعني اجتمعت فلم تتفرق، طيب ما هو الأمر المجتمع عليه؟ هو الكتاب والسنة، ولم يقع خلاف في هذه الأمة وتفرُّق إلا بسبب الإخلال بما أوجبه الله -عز وجل- من العمل بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

ثم ذكر الإمام -رحمه الله- بعد تقرير، هذا وأيضًا يعني أنا لكن أشير إلى نقطة مهمة أن بعضهم قد يقول إن حديث الافتراق ضعيفة، وجاءت عن أكثر من ثلاثة عشر صحابيًّا، لكن كثير منها ضعيف وفيها ضعيف جدًّا حقيقة، وفيها -كما قلنا ذكرنا- ولو تنزلنا بأنه يعني هو الآن عندنا افتراق، عندنا الآن افتراق، أصل الافتراق في هذه الأمة ثابتٌ لا إشكال فيه، لكن من هي الفرقة الناجية؟

هي التي جاءت فيها هذه الأحاديث، بعضهم الآن يضعِّف هذه الأحاديث وهو ليس من أهل التصحيح والتضعيف في الحديث من المعاصرين؛ وصولاً إلى أمرٍ مهمٍّ، وهو: إدخال

جميع هذه النِّحل تحت قُبة واحدة ومساواتها بأهل السنة والجماعة سواءً بسواء؛ لأننا إذا قلنا: كلها في النار إلا واحدة" يقولون: لماذا؟ هل تماثلون أهل السنة والجماعة؟ لا يماثلونهم؛ صاروا هم أهل أهواء، ولكن يقول لا، هذه الأحاديث ما ثبتت، يقول هذه ما ثبتت؟ لو ما ثبتت، النبي عليه الصلاة والسلام قال: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم إلى قيام الساعة» بألفاظ متعددةٍ، جاء هذا الحديثُ، ثابتٌ الحديث هذا من وجوه كثيرة في الصحيحين من حديث المغيرة وحديث معاوية، وفي صحيح مسلم من حديث الجابرَيْن: جابر بن عبد الله، وجابر بن سَمُرةَ، ومن حديث ثَوْبان، ومن حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، ومن حديث عبد الله بن عمر.

إذًا كم العدد؟، هذا متواترٌ؛ فضلًا عما في السنن من حديث عِمران وغيره فيها أحاديث كثيرة جاءت في هذا المعنى أن طائفة من هذه الأمة تبقَى على الحق حتى يأتيَ أمرُ الله.

إذًا فيه طائفة قائمة، طيب معناها أن الطوائف الأخرى من هذه الأمة ليست على الحق، عندها باطل، أهل أهواء، فلو قلنا بضعف تلك الأحاديث فهذه الأحاديث صحيحة ثابتة في الصحيحين وغيرهما ولا إشكال فيها، والمعنى فيها واحد، ولا أحد منَّا يشكُّ من أهل الإسلام قاطبةً أنَّ الحق المحض في ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا لا أحد، ولا أحد يشك منا أن الجماعة الحقَّ التي استوفت الجماعة الشرعية هي التي كانت في عهد النبي عليه الصلاة والسلام، ولا أحدَ منا يشكُّ أن الغلبةَ لأهل الحق كانت في عهد النبي صلى الله عليه وسلم أكثر من غيرها من جاء بعدها، وهذا لا شكَّ فيه، إذًا فالحديث حتى لو لم يثبت فلا إشكال فيه، فحديث الطائفة المنصورة، هذا واضح.

قال الإمام: ثم صار الأمر إلى الافتراق في أصول الدين وفروعه وهو العلم في الفقه في الدين، انتبهوا الإمام محمد يذكر ما آل إليه الأمر، فعنده الآن تأصيل شرعي، وعنده واقع، الواقع -هذا يا إخوان- هو تراكمي، يعني من بدأ حصل التفرق وهذا الاختلاف نشأ في الأمة يكثر ويعظم ويقل أحيانًا ويزداد أحيانًا وتشتد ضراوته أحيانًا وأحيانًا تخف، يعني هذا التفرق استمر مع هذه الأمة، وهذا خبر عن ماذا؟ عن ما سيقع لكن إخبار الله وإخبار رسوله عليه السلام عما

يقع ليس معناه الرضا به؛ لأن عندنا الأمر الشرعي والأمر القدَري، الأمر القدري مبنيٌّ على العلم يعني: إن الله علم أنه سيكون وشاء -جل وعلا- أن يكون وأذن فيه أن يكون لكن ليس معناه أن الله رضيه، أما الأمر الشرعي فهو أمر قد رضيه الله ولكن قد يقع من المكلف وقد لا يقع، الله يرضى لنا الصلاة لكن هل كل المكلفين يصلون؟ لا، ليس كل المكلفين يصلون، لكن من ترك الصلاة فبقدر الله، بأمره القدري ومن أدّاها فبأمره القدري.

اذًا التفرق الذي يحصل؛ هل هو يدل على رضى الله؟ لا، لكنه خبر عما سيكون، والإخبار عما سيكون يُنظر فيه إلى تصديق الخبر، يعني أنه كائن لا بد، هذا أولًا، وأما الذي يقع فيُحكم عليه بحكم الشرع، لما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بكثرة فشوِّ الزنا في آخر الزمان، هذا خبر سيقع، لكن الزنا، ننظر لها بالمنظر الشرعي بالحكم الشرعي، ما حكم الزنا؟ حرام، ليس معنى الإخبار بأن الزنا يفشو أنه يكون جائزًا، لا، ومثله التفرق، وأخبرنا بالتفرق ليس معناه أنه يسوِّغ لنا أن نتفرق، بل الخبر بحصول التفرق مما يوجب على الإنسان أن يكون شديد التوقي له، كأن النبي السلام يقول: إن التفرق قادم فخذوا حِذركم؛ لأن الشيء الذي نهى عنه الشرع وأخبر الشارع بوقوعه مما يجعل النفس المؤمنة تحطاط وتحذر وتخاف منه، يعني أخبرك عن شيء بوقوعه قد تكون من الهالكين فيه، فإذا أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن هذه الأمة تفترق، فإن الإنسان يخشى على نفسه أن يكون الله -عز وجل- قد كتبه في هذه الفرق والنِّحل والجَماعات.

ونقف عند هذا؛ لأجل الصلاة، والله أعلم وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله صحبه أجمعين .

أنا سمعت أذان استغربت طيب؛ لأنني نظرت الساعة فعلًا خمسة ونصف بس أنا راح ذهني ستة ونصف طيب إذًا الحمد لله .

طيب بسم الله، قال الإمام: ثم صار الأمر إلى أن الافتراق في أصول الدين وفروعه هو العلم والفقه في الدين؛ هو العلم، يعني، وعليه قرئ قوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ

كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ ﴾ [الأنفال: ٣٢]، وقرئ: (كانَ هذَا هوَ الحقُّ)؛ وإعرابها معروف عند العلماء.

طيب، طبعًا هو إعرابها مذهبان، لكن الأشهر إعرابها على النصب على أنها خبر كأنه ضمير الفصل هذا لا محل له من الإعراب .

قال: ثم صار الأمر إلى أن الافتراق في أصول الدين وفروعه هو العلم والفقه في الدين.

هنا يشير المؤلف -رحمه الله- إلى المذاهب المبتدعة في الاعتقاد، تلك المذاهب المبنية على القضايا العقلية والمسائل الكلامية والقواعد المنطقية وعلى الطُّرق المخترَعة وعلى الإعراض عن الوحي المنزَّل على نبيه صلى الله عليه وسلم، إلا على جهةِ الاستئناس.

وأشار أيضًا الإمام -رحمه الله- إلى الرأيِ أو التفرُّق الذي يحصُل بسبب الرأي أو التعصب المذهبي، وإن لم يكن اعتقاديًّا، فهو إشارة منها -رحمه الله- إلى التفرق الحاصل في باب العِلميات التي هي الاعتقاد، وفي باب العمليَّات وهي الأحكام، حصَل تفرقٌ في الأمة، طيب يقول: هذا التفرق هل هو مذموم؟ نقول: أما في الاعتقاد واحد، ولهذا يا إخوان الاعتقاد؛ لمَّا نقرأ كتب الاعتقاد مثلًا، لو قرأنا كتاب اللالكائي، يذكر لك في كل ما ذكر مسائلة اعتقاد ما عليه علماء الأمصار، ويعدِّد لك من هؤلاء العلماء ولا تجدهم يختلفون، عقيدتهم واحدة، وأصولهم واحدة، ليس بينهم اختلاف، الاختلاف حاصل في العمليات ولكنه اختلاف لا يوجِب التفرق، لماذا؟

لأن الاختلاف في العمليات التي هي الأحكام، هو ناشئٌ عن اجتهادٍ، بمعنى: أن كل إمام من هؤلاء الأئمة كان يطلب الحقَّ بدليله، ويبذل جهده ووسعه لذلك، ويقدِّم قول نبينا صلى الله عليه وسلم على قول كل أحدٍ، لكن النظرَ في الأدلة قد يؤدي أحيانًا الى الاختلاف في الحكم؛ فترى هذا يقول: يجوز، وهذا يقول: لا يجوز، هذا يقول: سنة، وهذا يقول: غير سنة، هذا مشروع، وهذا يقول غير مشروع، وهذا يقول هذا رخصة وهذا يقول هذا عزيمة.

طيب هذا الاختلاف ما أوجب التفرق والتنازع أبدًا، ولذلك وهو بهذه الصورة ليس منهيًّا عنه، وإنما يكون منهيًّا إذا كانت المسألة مقامة على الرأي ضد الدليل، الرأي ضد الدليل؛ لأن الرأي يصيبُ ويخطئ، أما الدليل فهو حق.

والثانية: إذا كان ناتجًا عن التعصب للمذهب، فبعض الناس قد يكون مالكيًّا، هذا مذهب مالك -رحمه الله- قد يكون مالكيًّا، ويستبين له الدليل من الكتاب والسنة أن هذا الشيء مباح، لكنه يدعُ الدليل؛ لأن هذا الشيء في مذهب مالك محرَّم، استبان له الحق، والإنسان إذا استبان له الحق واجب عليه قصده، حتى الأمة رجعوا، ألا ترون الأئمة لهم روايات ولهم رجوعات؟! هم أئمة كبار وما ضرَّهم ذلك.

إذًا هذا نتائج عن اجتهاد، والاجتهاد يصيب ويخطئ، النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «إذا اجتهدَ الحَاكمُ فأصابَ فلَه أجرانِ وإنِ اجْتهَدَ فأخطأَ فلهُ أجرٌ»، وهؤلاء الأئمة هكذا، فمتعصبة المذاهب الذين يرون الحق في مذهبهم ولا يعدونه إلى غيره ويعارضون أو يتركون ما استبانت به السنة إلى قول الإمام أو إلى قول المذهب أو يتمسكون بالرأي المحض ضد الدليل، هذه الطريقة هي اختلاف مذموم، وتفرق مذموم.

فإذا فرضنا: انتصر الشافعي لمذهبه، والمالكي لمذهبه، والحنفي لمذهبه، والحنبلي لمذهبه، كل منهم تعصب لمذهبه دون الدليل فهذا هو التفرق والاختلاف المذموم؛ ولهذا وقعت بسبب هذا الاختلاف على هذا الوجه في بعض الأزمنة، خلافٌ وتفرق بين أصحاب المذاهب، حتى آل الأمر إلى أن الحرم فيه أربعة أئمة، كل مذهب له إمام وكل صلاة تقام في وقت معين وكل أذان في وقت معين، وكل واحد ينتمي إلى مذهبه ويصلي خلف إمامه، حتى أزال الله -عز وجل- ذلك على يد الإمام الملك عبدالعزيز -رحمه الله- فمنعها كلها، وحَّدهم على إمام، هكذا كانت السنة، وهذا هو الحق الذي لا يجوز غيره.

أما في مسألة الاعتقاد، فالاعتقاد معناه: الاختلاف معناه: الاعتقاد في الأصول، والعجب -يا إخوان- أن هؤلاء -أهل التفرق والاختلاف- اختلفوا في أئمتهم، فتجد الواحد منهم يعرِّف بنفسه يقول مثلاً: فلان بن فلان الأشعريُّ عقيدةً، والشَّاذليُّ طريقةً، والشافعيُّ مذهبًا، يعني

معناه: أن الشافعي -رحمه الله- لا يتبع الطريقة والسلوك إلى الله، يعني المنهج إلى الله، ما يتبع لأنك اتبعت الشاذلي، الشافعي ليس أهلًا لهذا، والشافعي -رحمه الله- ليس أهلًا في مسائل الاعتقاد؛ حتى أتَّبع أبي الحسن الأشعري المتوفَّى في القرن الرابع وأدع الإمام الشافعيَّ، ومثلُه أيضًا الإمام أحمد ومالك وأبي حنيفة وغيرهم من الأئمة، يتركون هؤلاء. الإنسان يجزِّئ نفسه إلى ثلاثة أجزاء:

إما أن تقول إن الشافعي -رحمه الله- كان على الاعتقاد السوي وعلى الطريق الصحيح ومذهبه هو أقرب المذاهب إلى الحق في الفقه فأسلك هذا الطريق.

وإلا تقول الشافعي كان مخطئًا في الاعتقاد مخطئًا في السلوك أو طريقته ليست طريقة الشاذلي ولا أبي الحسن الأشعري.

أو تقول إن طريقة أبي الحسن الأشعري والشاذُلي هذه الطرق حادثةٌ لا أساس لها من دين الله.

فهذا هو الحق، طرقٌ مبتدعة لا أساس لها في الكتاب ولا في السنة، والحق ما كان عليه الإمام الشافعي وأحمد وأبو حنيفة ومالك وإسحاق والليث بن سعد ومَن قبلهم ومَن بعدهم من الأئمة، كلهم كانوا على الحق، ولكن عندنا في مسائل الاعتقا:د الأئمة كلهم في الاعتقاد على أصل واحد لا يختلفون فيه أبدًا، كلهم في الاعتقاد على أصل واحد، لكن في الأحكام العملية؛ لأنها اجتهادية وفيها تجدُّد يعني بمعنى حوادث طارئة، والأفهام قد تختلف في فهم النص وطرائق فهمه، وقد يخفى على بعضهم الدليل أو بعض الأدلة. كل هذه في مسائل الأحكام، هذه مغتفرة ما لم تصل لحد التعصب المذهبي أو التمسك بالرأي المحض مقابل الدليل، وأما في مسائل الاعتقاد فالأصل واحد، ولا يختلفون فيه البتَّة، وعليه أجمعوا.

ابن القيم -رحمه الله- يقول: حتى تفهم هذا الاختلاف يقول: إذا كان الأصل واحدًا، والغاية المطلوبة واحدةً، والطريق المسلوكة واحدةً، لم يكد يقع اختلاف، وإن وقعَ كان اختلافًا لا يضُر.

ذكر هذا في الصواعق، إذا كان الأصل واحدًا، ما المراد بالأصل؟ الكتاب والسنة، هذا الأصل، أصلنا الكتاب والسنة، الغاية المطلوبة ما هي الغاية؟ هي: طاعة الله وطاعة رسوله عليه الصلاة والسلام، هل للمؤمن غاية في النظر في الكتاب والسنة إلا ليطيع الله ورسوله؟ هذه الغاية، الغاية: أن يكون عملي موافقًا لكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

والطريق المسلوكة واحدة: وذلك هو معنى النظر في أدلة القرآن والسنة وتقديمها على الرأي والقياس، وعلى كل قول وذَوْق نقدم على كل شيء، هذا الطريقة المسلوكة يعني أننا نأخذ من كتاب الله وسنة النبي صلى الله عليه وسلم.

لكن هنا نقطة أُنبه عليها عليها يا إخوان:

المذاهب الأربعة، الموقف منها -يا إخوان- مهم، لأن فيه طائفتان؛ طائفة متعصبة للمذاهب، وطائفة نقيض المذاهب بالتمام، حتى إن بعضهم يقول نأخذ من الكتاب والسنة مباشرة، ما أحد يمنعك، تأخذ من الكتاب والسنة مباشرة، لكن الأخذ له أصول وضوابط وقواعد.

طيب نقول يا إخوان: أولًا هذه المذاهب مذاهب سنية مُعتبرة عند العلماء لها قواعد وأصول، والانتساب إليها لا محظور فيه شرعًا ما لم يكن على جهة التعصب؛ لأن المقصود بالانتساب إليها: التعريف بالأصول التي تسير عليها في التفقُّه، فإذا قلنا: فلان حنبلي، ما هو معناه؟ معناه أنه يتفقه على طريقة أصول مذهب الإمام أحمد رحمه الله، بمعنى مثلًا: من أصول أحمد اعتبار قول الصحابي؛ على تفصيلٍ فيه، هو يَعتبر قولَ الصحابي إذًا هو جارٍ على هذا الأصل مع الأصول الأخرى، مثلاً "المصالح المرسلة" على مذهب مالك مثلًا يَعتبر المصالح المرسلة أصلًا، ويجري على طريقة مالك إذًا فنقول مالكي؛ لأنه يأخذ أصول مالك ويُعملها في الفهم، هذا لا إشكال فيه، مثل ما أنت الآن تقول: فُلان ابن فلان الفيزيائي، معناها أنه يعرف قواعد الفيزياء، معناه أنه يعرف الفيزياء أم لا؟

هذا، وهكذا الانتساب للمذاهب الانتساب إليها على الوجه التعريفي هذا لا إشكال فيه، أما على جهة التعصب لها، فهذا منهيٌّ عنه ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم اعتزَّ بالأنصار والمهاجرين وهو لفظ شرعي نزل في القرآن، لكن لما كان في التعصب ذمَّه القرآن.

إذًا هذه المذاهب لها أصول يجب أن نعرفها، لها أصول ليست هي فوضى ولا خطًّ عشواء، لها أصول وقواعد محكمة، لها أصول ولها قواعد فتكلمت الأصول، في القواعد، وفي المقاصد، وفردت الفروع على الأصول والفروع على الفروع، فيها اجتهادات عظيمة، ومشحونة بأدلة الكتاب والسنة والآثار.

طيب، إذا علمنا هذا، طالب العلم ماذا يصنع؟ طالب العلم إذا كان عنده آلة معرفة: التفقه والترجيح بينها، ينظر في الأدلة ويرجِّح ما يرجحه الدليل، ليس له عنده آلة: يتبع من يراه أقرب إلى الحق، يتبع أحمد بن حنبل أقرب إلى الحق؛ لأن هذا من الاتباع؛ لأن الله قال: ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٤٣) ﴾ [النحل: ٤٣]، ولو سألكم سائل قال: الإمام أحمد بن حنبل من أهل الذكر أم ليس من أهل الذكر؟ مالك من أهل الذكر أم ليس من أهل الذكر؟ من أهل الذكر، إذًا فأنت إذا لم يتبين لك خلاف الدليل واتبعته ماذا تكون؟ تكون موافقًا للقرآن ولا مخالفًا للقرآن؟ ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ ﴾ [النساء: ٨٣]، و«العُلَماءُ وَرَثَةُ الأنْبياءِ».

إذًا، أنت متِّبع، لكن الكلام أنك تخالف مع وضوح الحق وبيان الدليل، هذا إذًا المذاهب فيها اتباع، هذا أولاً، لكن من المذموم أن تأخذ المذهب بعُجَره وبُجَره بقويِّه وضعيفه وتقول هذا ديننا ندين به الله، وتترك النظر في الأدلة الشرعية مع قدرتك عليها.

ثم أيضًا من فائدة هذه الكتب: هو فهم أدلة الكتاب والسنة، فهذه الكتب مليئة بتفسير الآيات، ببيان الأحاديث، بالجمع بين المُشكل، وتوجيهها، والدلالة على ناسخها من منسوخها، وعلى محتملاتها، فيها فوائد عظيمة، مَن حُرم النظر في كتب الفقه فقد حرم خيرًا كثيرًا.

الشُّراح الذين يشرحون الأحاديث والسنن والقرآن هم الفقهاء، هم الفقهاء، وبعضهم له مؤلفات في الفقه أصلًا ورعاية لمذهبه قوية، تجده مفسرًا محدِّثًا وفقيهًا وعلى مذهب أحد الأئمة.

إذًا فأنت لما تقرأ هذه الكتب تستفيد علمًا عظيمًا قد لا تجده لا في شروح الأحاديث، ولا في التفاسير، ولا في غيرها.

ولكن النظر -كما قلنا- فيها هو: النظر في هذه الأشياء؛ إما من حارف عنده علم واطِّلاع ومعرفة للتمييز بينها هذا يجب عليه التمييز وترجيح ما رجحه الدليل، مع الاعتذار للأئمة و الترضِّي عليهم جميعًا.

ما لم يتبين له الدليل أو ضاق عليه الوقت وهو يتبع إمامًا يعتقد أنه أقرب إلى الحق يتبع هذا الإمام، أما إذا كان الإنسان عامِّيا ففرضه التقليد لكن يقلّد من؟ يقلّد عالمًا، يقلّد عالمًا يدين الله -عز وجل- بأنه على علم بالكتاب والسنّة وإذا قلّد عالمًا على أنه انتقل من التقليد إلى الاتباع؛ لأنه لم يعد مقلّدًا محضًا إنما كان متّبعًا لإمامٍ أو عالمٍ يعتقُد اعتقادًا بما استفاض من حال هذا العالم أنه لا يقول على الله -عز وجل- إلا بعلمٍ.

إذًا هذا ما يتعلق بهذا الأصل، لكن فيه نقطة يمكن لم أذكرها ونسيت ممكن أن أعلق عليها.

فيما مضى تكلمنا عن إخبار النبي صلى الله عليه وسلم بوقوع الاختلاف، والنهي عن الاختلاف، وقلنا: فيه فرق بينهما، هذا أمر كوني وهذا أمر شرعي، ويرتبط بهذا -يا إخوان- تفسير قول الله -عز وجل-: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾[هود: ١١٨، ١١٩]، ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾: فإنهم لا يكونون مختلفين، قال: ﴿ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ خلقهم للرحمة أم للاختلاف؟ خلقهم للاختلاف: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ ﴾ بالتغابن: ٢]، والاختلاف كثير، وأدلة وقوع الاختلاف كثيرة جدًّا.

اذا ﴿ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ هذا يتعلق بأمر الله الكوني، انتبهوا بأمر الله الكوني يعني: الله قدر أن الاختلاف سيقع لكن لا يعني به الرضا، ولذلك جعل الرحمة لغير أهل الاختلاف، ودلَّ ذلك

على أن المختلفين ليسوا من أهل رحمة الله، بل هم من أهل العذاب؛ لأن الله -عز وجل- توعَّدهم بذلك.

قال رحمه الله: الأصل الثالث: أن من تِمام الاجتماع السمعَ والطاعةَ لمن تأمَّر علينا ولو كان عبدًا حبشيًّا فبيَّن الله هذا بيانًا شائعًا كافيًا لوجوه من أنواع البيان شرعًا وقدرًا، ثم صار هذا الأصل لا يُعرف عند أكثر من يدَّعي العلم، فكيف العمل به؟

هذا الأصل -يا أخوان- قال الإمام: إن من تمام الاجتماع فهو مرتبط بالأصل السابق، وقال إن من تمام الاجتماع أي: من تمام الاجتماع الواجب، هذا ليس من باب النافلة وإنما هو من باب الفريضة؛ لأن العلماء -رحمهم الله- مُجمعون على وجوب نَصب الإمام أو على وجوب نصب إمامٍ يُسمع له ويطاع، هذا إجماع حكاه غير واحد منهم الماوردي والقرطبي وغيرهم حكوا الإجماع على هذا؛ بحيث لا يصبح الناس فوضى.

وهذا حتى من الناحية العقلية والمنطقية والواقعية ظاهر، يا اخواني يعني أنا الآن في هذا الجامع هذا العدد الآن لو أردنا أن نكون هناك إدارة هذه المجموعة تدير نفسها كذا بدون أن يكون لها رأس يديرها لا يمكن وسيقع التفرق والاختلاف والتنازع والتنعر لأن كل شخص له رأي لكن لا بد لهم من إمام.

ولهذا عمر رضي الله عنه في سنن الدَّارمي يقول: «لا إسلام إلا بجماعة، ولا جماعة إلا بإمارة، ولا إمارة إلا بطاعة».

لنأتي ونقول«لا إسلامَ إلَّا بجَماعَةٍ» ما معناه؟ الإسلام يقوم على ماذا؟ كيف الإسلام كيف تدعوه؟ بالدعوة إلى الله، إذًا مَن يقوم بالدعوة؟ الناس، طيب، يحتاج جهادًا، مَن يقوم بالجهاد؟ إذًا: لا إسلام إلا بجماعةٍ، لا يمكن، ولا جماعةَ إلا بإمام، لا يمكن، أن يكون هناك جماعة تدير نفسها بدون أن يكون لها إمام يديرها.

ولذلك النبي صلى الله عليه وسلم حتى في السفر يؤمِّر أميرًا، وإذا كان في الغزو يؤمر النبي عليه الصلاة والسلام، حتى يكون الناس مجتمعين عليه وهذا الاجتماع يقطع كثيرا من

النزاعات، لكن إذا لم يكن لهم إمام، تنازعوا، ثم فشلوا، وذهبت ريحهم، وهذا واقع الناس من قديم إلى الآن، إذا لم يكن لهم من يديرهم فإنه يقع بينهم خلافٌ كثير.

حتى في البيت إذا لم يكن فيه أحد يديرُه؛ الأب يدير البيت يصير فوضى، وهو البيت يمكن فيه أربعة أو خمسة يصير فوضى البيت.

فإذا لا بد من إمام، إذًا ما المقصود؟ قال: ولا جماعة إلا بإمارة ولا إمارة إلا بطاعة؟ يعني أنه لا يتحقق المقصود من الإمارة إلا بطاعة الإمام، كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

طيب، ما المقصود بالإمام؟ لماذا ينصَّب الإمام؟ أولاً: كمسلمين ننصب الإمام طاعة لله، وأخذ بعض أهل العلم هذا من قول الله -عز وجل- ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: ٣٠]، أخذها من هذه الآية، وقال: إن هذا أصل في شرعية نصب الإمام.

لكن عندنا أدلة كثيرة ربطها النبي صلى الله عليه وسلم بالإمامة، والصحابة رضي الله عنهم أمَّروا عليهم، وأجمع على ذلك أهل العلم إذًا فالإمامة واجبة.

إذًا فنصب الإمام أولًا، نحن كمسلمين ننصِّبه طاعةً لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم، ولإقامة مصالح الدين والدنيا لأن الإمام هو الذي يحصل به إقامة أمور الدين والدنيا تقام به الجمع الأعياد والحج والغزو، وإقامة الحدود، وتولية القضاة، إلى غيره في أشياء كثيرة، ويسوس الناس في أمر دنياهم، ينظر في أمورهم، في أمور أموالهم، في تجاراتهم، في طرقهم يؤمِّن لهم السبل، إلى غير ذلك.

فالإمام إذا اجتمع عليه الناس جماعة، فيها خير كثير؛ ولهذا يقول ابْنُ الْمُبَارَكِ :

إِنَّ الْجَمَاعَةَ حَبْلُ اللهِ فَاعْتَصِمُوا *** مِنْهُ بِعُرْوَتِهِ الْوُثْقَى لِمَنْ دَانَا

إذًا، مَن كان يتديَّن لله، فليعتصم بحبل الله، الذي هو الجماعة.

كَمْ يَدْفَعُ اللهُ بِالسُّلْطَانِ مُعْضِلَةً ***

يعني المعضلة: هي الشيء الشديد.

كَمْ يَدْفَعُ اللهُ بِالسُّلْطَانِ مُعْضِلَةً *** فِي دِينِنَا رَحْمَةً مِنْهُ وَدُنْيَانَا

لَوْلَا الْخِلَافَةُ لَمْ تُؤْمَنْ لَنَا سُبُلٌ *** وَكَانَ أَضْعَفُنَا نَهْبًا لِأَقْوَانَا

لو ما يكفي الله كان أضعفنا نهبًا لأقوانا لمن يريد الدنيا أن هذه تكفيه، وهذه الحال.

إذا ما كان الناس مجتمعين على إمام صارت حالهم كذلك، كانوا قبل النبي صلى الله عليه وسلم كذلك، وفي عهود كثيرةٍ، وفي آخرها في جزيرة العرب هذه كان الناس متفرقين؛ لا يجمعهم إمام، والإنسان لا يستطيع أن يسافرَ لوحده، ولا أن ينام لوحده، كانوا في بلاء ومِحن وتَشتت وصراعات وخلافات، والسُّبل غير آمنة؛ إن جيء بطعامٍ سُرق، وإن خرج الإنسان خافَ على نفسه أن يُقتل، هذا كان موجودًا في جزيرة العرب.

فلما وحدهم الله -عز وجل- توحَّدوا على الملك عبد العزيز رحمة الله عليه صار الناس الحمد لله في أمن وخيروفضل واجتماع، وقام للناس أمرُ دينهم ودنياهم، الأول كان إذا قتل الإنسانُ آخر، مات، القصاص كيف يقام؟ مجرد ثارات، إنسان قُتل له آخر يذهبون يقتلون ابن عمه أو قريبه أو ابنه والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: «لا يجني جان إلا عن نفسه» ليس هناك حدود تُقام، كل شخص يقيم من نفسه، ثم عادت إلى كونها سلوم جاهلية وعادات جاهلية ليست شرعية، وكان كله بسبب أنهم لا يوجد لهم إمام يجمعهم، فالإمام يجمع الله به خيرًا كثيرًا.

إذًا قال الإمام: لمن تأمَّر علينا ولو كان عبدًا حبشيًّا، هذا أخذه من حديث عرباض ابن سارية رضي الله عنه، لمَّا وعظهم موعظة بليغة وسألوا النبي صلى الله عليه وسلم أن يوصيهم فقال: «أوصيكُم بتَقوَى اللهِ والسَّمعِ والطَّاعةِ وإنْ تأمَّرَ عليْكم عَبدٌ حَبشيٌّ».

تأمَّر على وزن تفعَّل، وتفعَّل من معانيها: التكلُّف في الشيء، تقول: تجشَّم له، تكرَّم له، يعني بذل ما لديه لكي يكرمه، تصبَّر يعني بذل جهدًا من أجل الصبر من معانيها هذا، وهو الذي يظهر هنا، لماذا؟ لأن الأحرار (لأن العبد غير الحر لا يصلح للإمامة) فدل ذلك على أنه إنما كان إمامًا بالتغلُّب، يعني تغلَّب تأمَّر يعني تأمَّر بالغلبة، فإذا تأمر ولو بالغلبة وجب السمع له والطاعة؛ لأن الإمام: إما أن يكون باختيار أهل الحلِّ والعقد تنعقد الإمامة باختيار أهل العقد، أو بولاية عهد يعهد السابق للاحق، أو بالتغلب؛ فإذا تغلب واستتبَّ له الأمر صار إمامًا له أحكام

الأئمة؛ من السمع والطاعة، انتبهوا هذه مسألة مهمة؛ لأن بعض الناس يقولون: هذا متغلِّب، وأنا وجدت في بعض الكتابات: والمتغلِّب لا سمعَ له ولا طاعة.

يعني معناها: أن غالب المسلمين في تاريخهم،؛ قضاء المسلمين كله باطل؛ يعني من كَلف القضاة منهم (من هؤلاء المتغلبين) مالهم؟ وجهاد المسلمين كذلك، وجُمَعُهم وأعيادُهم. هذا غلط..

والعجب الحقيقة هو يعني أن بعض من ينتمون لبعض الجماعات المعاصرة ينكرون التغلُّب، مكتوبٌ في الكتابات يقولون: لا يثبت ولاية ولا شيء، المتغلب هذا، في الوقت نفسه يُعظمون الدولة العثمانية، الدولة العثمانية كيف جاءت؟ التغلب، وبولاية عهد، كل واحد يعهد الآخر.

هناك أناس هنا ينكرون ولاية العهد في الكتابات مع أنه مُجمع عليها، والتغلب مجمع عليه أنه إذا استتب الأمر خلاص، وجب السمع الطاعة، ولو كان متغلبًا بإجماع العلماء فبعضهم يقول لهم: إنه إجماع، وهذا خطأ طبعًا، لكن الحامل على ذلك، يعني النظر هنا مع التناقض في تعظيم شأن الدولة العثمانية مع ما فيها من الخرافات والبِدع، طيب هي دولة متغلبة، ودولة قامت على بعد التغلب ولاية العهد، وعلى زعمكم أنها غير ثابتة، إذًا فيها الدولة تستحق الذم ولا تستحق المدح.

إذا تأمَّر عليكم: إذًا قلنا، إذا كان يسمع له ويطاع بالتغلب، إذًا من كان بولاية العهد أو باختيار أهل الحل والعقد له فهو ماذا؟ طيب الآن الانتخابات انتخابات، الآن شخص انتخبوه وصار رئيس دولة وين داخل فيه هذا؟ في هذا أو لا؟ داخل في التغلب، داخل في التغلب، انتخابات، تغلب؟ تقول لهم لا ما تغلب صح أو لا؟ وتمكن من مفاصل الدولة سلَّموه الجيش والوزارات خلاص ترأس الدولة صح أو لا؟ صار حاكمًا يُسمع له ويُطاع وتغلب لكن صار حاكمًا يُسمع له ويطاع.

هذا إذا قلنا ثبتت ولايته ترتب عليها مسائل كثيرة -يا إخوان- حتى في الانتخاب، وإن كان ليس بشرعي، لكن الطريقة هذه ليست شرعية لكن حصل هو التغلب على كل الأحوال، تغلَّب هو الآن وصار رئيسَ دولة وجب السمع والطاعة.

بعض الناس الآن يقول: أنا المنتَخب، خلاص أنا المنتخب، أتنازل عن الانتخاب وأخرج عليه؟ لا، هذا كله ما يسمح به الشرع، هذا كله خطأ وسأعطيكم الأدلة عليه -إن شاء الله-، والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبِه وسلم.

الحمد لله وصلى الله عليه وسلم وبارك على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه.

توقفنا عند الأصل الثالث، وبدأنا فيه .. وتوقَّفنا عند قوله عليه الصلاة والسلام: «وإنْ تَأَمَّرَ عليكم عبدٌ حبَشِيٌّ».

وهذا الحديثُ؛ حديث العِرباضِ بن سارية حديث مشهورٌ خرَّجه أبو داود والترمذي وصححاه، وهو من الأحاديث التي يتداولها أهل العلم، وقد ثبت في حديث أنسٍ أيضًا في صحيح البخاري مثلُ هذا.

وكذلك ثبت أيضـًا في صحيح البخاري من حديث أبي ذرٍّ في أنه يُسمع ويُطاع وإن استُعمل عبدٌ حبشي.

وقلنا إن قوله: «إنْ تَأَمَّرَ» هذه صيغة تفعَّل كأنَّ فيها تكلُّف، وأيضًا فيها طَلَبٌ مادةُ "تفعَّل" تدل على الطلب وعلى التكلف.

ثم يقول العلماء: يقولون تَكلَّف تصبر أو تشكَّرَ، وفي الطلب مثل ما يُقال: فلانٌ تعظَّم يعني طلب العظمة أو تيقَّن يعني طلب اليقين.

وعلى كلٍّ هذه اللفظة مُشعِرة بأنه طلب الولاية بالغلبَة، فإذا كان يُسمع له ويُطاع مع أنه تولَّى الأمر بالغلبة وكذلك غيره ممن تثبت له الولاية: يُسمع له ويُطاع.

وقال المؤلف: إن من تمامِ الاجتماع: السمع والطاعة لمن تأمَّر علينا.

طيب. السمع والطاعة مُطلقة؟ ليست مُطلقة، لكن المؤلف -رحمه الله- قفَى أثر الحديث؛ لأنه قال في الحديث: السمع والطاعة وأطلقها، لكن جاءت الأحاديث الأخرى مبينةً أن السمع والطاعة في غيرِ معصيةِ الله عز وجل.

كما قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم في حديثِ ابن عمرَ: «عَلَى المَرْءِ المُسْلِمِ السَّمْعُ والطَّاعَةُ فِيما أَحَبَّ وكَرِهَ، إلَّا أنْ يُؤْمَرَ بمَعْصِيَةٍ، فإنْ أُمِرَ بمَعْصِيَةٍ، فلا سَمْعَ ولا طاعَةَ».

وهذا حديثٌ طبعًا في الصحيحين لكن يجب أن يُفهمَ فهمًا صحيحًا، فقوله: فلا سمعَ ولا طاعة يعني فلا سمعَ ولا طاعةَ فيما أمرك به من المعصية؛ فالإمام إذا أمر بالمعصية؛ فلا يُسمع له ولا يطاع في هذه المعصية، وأما غيرُها من أوامره فيُسمع له فيها ويُطاع، وليس معنى فلا سمع ولا طاعة أن تنتفي إطاعته مطلقًا. هذا غلط.

ثم أيضًا دلَّ هذا الكلام على حديث أن السمع والطاعة في كلِّ الأحوال ليست اختيارية؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «عَلَيْكَ السَّمْعَ والطَّاعَةَ في عُسْرِكَ ويُسْرِكَ، ومَنْشَطِكَ ومَكْرَهِكَ، وأَثَرَةٍ عَلَيْكَ».

يعني في جميعِ أحوالك، حتى ولو استأثر الحاكم بكل شيء؛ استأثر بالأموال واستأثر بكل شيء عليك السمع والطاعة، عليك السمع والطاعة في حال مَنشطك: نشاطك، في حال عُسرك، في حال يُسرك في كل أحوالك، يلزمك أن تطيع الإمام في غيرِ معصية الله تعالى، حتى ولو كان الإمام فاجرًا، ولو كان الامام فاجرًا ففجوره عليه، ولكن يُسمع له ويُطاع في غير معصية الله عز وجل.

وهكذا تواترت الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم،

في حديث سلمة بن يزيد الجُعفي لما قال للنبي عليه الصلاة والسلام: «إنْ قَامَتْ عَلَيْنَا أُمَرَاءُ يَسْأَلُونَا حَقَّهُمْ وَيَمْنَعُونَا حَقَّنَا؟ ... قالَ: النبي صلى الله عليه وسلم: «اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا، فإنَّما عليهم ما حُمِّلُوا، وَعلَيْكُم ما حُمِّلْتُم».

وهذه الجملة: «فإنَّما عليهم ما حُمِّلُوا، وَعلَيْكُم ما حُمِّلْتُم».، ماذا تدل عليه؟ تدل على أن الإمام يحاسبه الله وليس للرعية محاسبتُه، «فإنَّما عليهم ما حُمِّلُوا، وَعلَيْكُم ما حُمِّلْتُم» حُمَّل القيام بواجب أمانة الرعيّة، وأنتم حُمِّلتم ماذا؟ طاعة هذا الإمام؛ فكل واحدٍ له واجبه الذي فرضه الله عز وجل عليه.

وهذا السمعُ والطاعة -كما قلنا- هو مطلقٌ، في الأحوال كلها، وحق الإمام يجب أن يوصل إليه وإن منعك الحق، وحقُّك تأخذه من الإمام بسؤال الله -عز وجل- ليس بالخروج عليه، ولا

بالمظاهرات ولا بأي شيء آخر؛ لأن النبي صلى الله عليه سلم هو الذي أرشدنا إليه في حديث ابن مسعود رضي الله عنه لما قال النبي صلى الله عليه سلم: «إنَّها سَتَكُونُ بَعْدِي أَثَرَةٌ وأُمُورٌ كثيرة تُنْكِرُونَها، قالوا: يا رَسولَ اللهِ، كيفَ تَأْمُرُ مَن أدْرَكَ مِنَّا ذلكَ؟ قالَ: تُؤَدُّونَ الحَقَّ الذي علَيْكُم، وتَسْأَلُونَ اللهَ الذي لَكُمْ».

انظر الأول: «فإنَّما عليهم ما حُمِّلُوا، وَعلَيْكُم ما حُمِّلْتُم» يعني: ليس لكم محاسبتهم. طيب: إذا أخذوا شيئًا من ابن آدم ماذا يصنع؟ يخرج مظاهرات؟ يعصي أوامرهم؟ يسوي عصيان مدني؟ كل هذه عادات جاهلية. النبي صلى الله عليه وسلم قال: «تَسْأَلُونَ اللهَ الذي لَكُمْ»، ﴿وَاللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، إلا إذا كان الإنسان ليس مؤمنًا بقدرة الله، ولا عنده حسن ظن بالله. هذا أمر آخر.

النبي صلى الله عليه وسلم أرشدنا إلى هذا، لو سألك سائل: قال: من أعلم: أنتم أم رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ من أعلم؟ هذا جوابه: رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا شك.

طيب. من أرأف بالناسِ: نحن أو رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ طيب. الرسول صلى الله عليه وسلم هو الذي أمرك بالصبر على جَوْرِ السلاطين، فهل اختارَ لك الأحسن أو اختار لك الأسوأ؟

فعُلِم أنَّ مثلاً المظاهرات باطلةٌ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم لما سئل عنهم، قال: «فَاصْبِرُوا حتَّى تَلْقَوْنِي علَى الحَوْضِ».

طيب. النبي صلى الله عليه وسلم أمرك بالصبر ولَّا الخروج؟ أمر بالصبر. طيب إذا خرجت: عصيت أو لم تعصِ؟ عصيت رسول الله صلى الله عليه وسلم.

يا إخوان، طبعًا هذه المظاهرات والاعتصامات، هذه كلها جاهلية في جاهلية، وليس عند أحد منهم مستند البتة؛ لا صحيح ولا صريح، كلها مخالفة للأحاديث الصحيحة الصريحة، وكل ما استدلوا به باطل لا يصحُّ لا سندًا ولا متنًا، كلها باطلة.

ولكن هؤلاء الذين يقولون بالمظاهرات هم لهم قضيةٌ ثانية غير قضيتنا، مش قضيتنا: أنا بسألكم: السيادةُ لله ولَّا لغير الله؟ لله، فعن النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «إنما السَّيد الله» صح ولا لا؟ الله عز وجل يقول: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾.

الذين يطالبون بالمظاهرات ترى ما يرتكنون إلى الشريعة؟ يرتكنون إلى ما يسمَّى بسيادة الأمة، يعني السيادة للأمة ليست لله، تعرفون؟ ليست لله، للأمة، يعني الذي يشرعِّ: مجلسٌ تشريعي: الناس، والقضاء: قانوني، والحكومة التنفيذية هذه: منتخبة على طريقة الجاهلية هذه.

فهذه المظاهرات أصلها عائدةٌ إلى سيادة الأمة، لكن حاول أناس يضعون لها أدلة، كلها أدلة يا ضعيفة جدًّا ولا تصح.

قصة حمزة لما خرج النبي صلى الله عليه وسلم، - قالوا: قصةً باطلةً- وبعدين هم خرجوا مع النبي صلى الله عليه وسلم ولَّا خرجوا عليه؟ هو كان وليُّ أمرهم، خرجوا معه، ما خرجوا عليه. هم خرجوا معه وليس عليه.

واستدلالاتهم كلها باطلة طبعًا، حتى إنهم لما لم يجدوا استدلالًا ماذا قالوا؟ قالوا: المظاهرات مشروعة في الإسلام لماذا؟ قالوا: صلاة العيد مظاهرة، صلاة الجمعة مظاهرة، هذا موجود، وهذا كله باطل لماذا؟ لأن المظاهرات ما هي؟ هو الخروج لأجل إرغامِ السلطة على تنفيذ ما يريدون.

طيب. أنت تخرج لصلاة الجمعة إرغامًا لله؟ إرغامًا لماذا؟ تخرجُ طاعةً وقربى للهِ، صح ولا لا؟ إذا فسدت العقول ورغبت في شيء قالت أشياءَ مضحكة، فأنتم دائمًا هذه المسألة مهمة لماذا؟ لأن التعامل الآن ليس بينك وبين الله، يعني في الشرك بينك وبين الله صح ولا لا؟ في الاتباع بينك وبين محمد صلى الله عليه وسلم لكن في السمع والطاعة في بشر مثلك أولا لا؟

السمع الطاعة في بشر، هو بشر وأنت بشر ولا لا؟ ما يفرق عنك شيئًا، فالنفوس مجبولة على عدم الانقياد لشخص آخر مثله.

ولذلك ما يحكم في هذه المسألة إلا ماذا؟ إلا التسليم واليقين. التسليم للأحكام واليقين بأنها خير لنا وأن الخير فيها، انتبهوا هذه لازم تعرفونها: التسليم واليقين تسلِّم بهذه الأدلة وتُوقن أن مقتضاها خير لنا وخير مما يأتي به غيره.

ولهذا لما نقول هذه المظاهرات ما تجوز وأن النبي صلى الله عليه سلم قال: «فَاصْبِرُوا»، وقال: «تسألونَ الحقَّ الَّذِي لكُمْ؛ فإنَّما عليهم ما حُمِّلُوا، وَعلَيْكُم ما حُمِّلْتُم».

هذه كلها ما الذي تدل عليه؟ على حرمةِ مثل هذه التظاهرات والاعتصامات وغيرها، فلا يغتر الإنسان بما يقال أو يأتي بعض الشرعيين يبرر مثل هذه الأشياء، كلها باطلة، وهي أمرها محسومة في الشرع وليست محل اجتهاد وليست هي جائزة في زمن أو في مكان وفي غيره غير جائزة، هي كلام.

فيه حاكم مسلم: تسمع له وتطيع، ما يجوز الخروج عليه في أي وقت كان، وفي أي مكان؛ ظلمك ضربك، جلدك، أخذ مالك، تسأل الله الذي لك.

ولهذا قال العلماء قوله صلى الله عليه وسلم: «مَن قُتِلَ دُونَ مَالِه فَهُو شَهِيدٌ» لا يدخل فيها الإمام، إذا ظلم، يعني: إذا الإمام يأخذ مالك ما تقاتل الإمام، لا تقاتل الإمام. غير الإمام تقاتله، يعني إنك تدفَعه ولو أدى ذلك إلى قتلك.

ولكن الإمام إذا أخذ المال يأخذه، تُسلم ليس هو محبةً بأنه يأخذ المال أو رضًا منك، ولكن انتبه، تسليمٌ لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم.

فطاعتك للإمام -أو الأمير- لا تنظر لها على أنها طاعة لشخصٍ مثلك، انظر على أنها طاعة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم.

ثم لو لاحظنا أن الشرع المطهَّر لما جاءت العلاقة بين الحاكم والمحكوم نظر فيها المصلحةَ العامةَ، وليست الأمور الخاصة؛ فالتعامل بما جاء به الشرع على وفق ما جاء الشرع يحفظ المصلحة العامة، وتنتظم أمور الناس.

أما إذا خالفَ الناس فيها، وابتغوا غيرها فستكون العواقبُ وخيمةً في الدنيا والآخرة ولا شك؛ لأن عندنا يقين بأن ما وجهنا له رسول الله صلى الله عليه وسلم وما اختاره خيرٌ مما نختاره نحن لأنفسنا، فضلًا عما يختاره غيرنا لنا.

وهذا الباب: السمع والطاعة، أولًا يجب أن نعرف عدة أمور فيها.

أولاً: وجوب الوفاء بالبيعة، وعدم نقضها: هذا أمر خطير لماذا؟ لأن البيعة إذا عُقدت فلا يحل لأحد نقضُها، بل يجب الوفاء بها. ابن عمر رضي الله عنه لما خلع الناسُ يزيدَ بن معاويةَ جمع ابنُ عمر رضي الله عنه أولادَه وحَشمه وذكَّرهم بقول النبي صلى الله عليه سلم: «يُنْصَبُ لِكُلِّ غادِرٍ لِواءٌ يَومَ القِيامَةِ». قالَ: وإنا قد بايعنا هذا الرجل على بيعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

ثم ذكر أنه لا يعلم غدرًا أعظمَ من أن يبايعَ الإنسان رجلاً على بيع الله ورسوله، ثم ينصِب له القتال، بعني خرج عليه ونقض بيعته.

ثم ذكر أنه إن علم أن أحدًا منهم قد خلع بيعة يزيد كانت الفيصل بينه وبينهم. يعني أن هذه هي مفاصلة بينه وبينهم وانقطاع الصلة بهم. هذا تشديد ابن عمر رضي الله عنه. ابن عمر لا يطلب لا منصبًا وليس هو بشيخ سلطانٍ ولا يرجو شيئًا، ابن عمر، هذا كلام ابن عمر رضي الله عليه، من أعلم الناس بسنة نبينا صلى الله عليه وسلم.

الذي خلع يزيد هو عبد الله بن مُطيع، وَجاء ابن عمر لعبد الله بن مُطيع فقال: عبد الله بن مطيع: ألقوا له الوسادة، يعني الجلوس إكرامًا لابن عمر، فذكر ابنُ عمر أنه ما جاء ليجلس لكن جاءه لماذا؟ أتاه يحدثه بحديث سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «مَن خلع يدًا من طاعةٍ ، لَقِيَ اللهَ يومَ القيامةِ وليسَ له حُجَّةٌ، ومنْ فارَقَ الجَماعَةَ ماتَ مِيتَةً جاهِلِيَّةً»؛ يعني يموت على الحالة التي كان يموت عليها أهل الجاهلية؛ وذلك أن أهل الجاهلية كانوا لا يرون السمع والطاعة للإمام، يرون أن السمع والطاعة له مذلةٌ ومهانة.

خالفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا، إذًا فابن عمر، وهذا الحديث ثابت في الصحيحين، الحديثان في الصحيحين واعتبرها ابن عمر غدرًا وخيانة.

وثانيـًا: رتّب عليها الأجر فدل على ذلك أنه فعلوا أمرًا عظيمًا.

وثالثها: أنه بيّن لابن مطيع المنقلب على يزيد بن معاوية، بيّن له ما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم، وبيّن أنه لو مات ابن مطيع على هذه مات ميتة جاهلية، وما أضيف إلى الجاهلية فهو مذموم، إذ لا بد من الوفاء بالبيعة.

الثاني: وجوب السمع والطاعة كما قلنا في غير معصيةٍ كما تقدّم.

وثالثها: بذل الجهد لتحقيق الطاعة، مع التذكير دائمـًا بأن الطاعة هذه ليست للإمام، هي طاعة لله ولرسوله عليه الصلاة والسلام، فتبذل جهدَك -ما استطعت- في طاعة الإمام؛ لأن ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم: « مَن بَايَعَ إمَامًا فأعْطَاهُ صَفْقَةَ يَدِهِ، وَثَمَرَةَ فؤادِه؛ فَلْيُطِعْهُ ما اسْتَطَاعَ »، وابن عمر رضي الله عنه قال: كنا إذا بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمعِ والطاعة قال: «فيما استطَعتُم»، وابن عمر لما بايع عبد الملك بن مروان قيَّد ذلك بالاستطاعة: "فيما استطعت"، وهذا منهج الشريعة،كل العبادات مقيدة بالاستطاعة، فدل ذلك على أن هذا عبادة وقربى لله وأنه فيما يستطيع فيه الإنسان.

فإذا كان أمره الإمام بشيء لا يستطيعه حقيقةً فإن الله -عز وجل- يعفو عنه، أما إذا كان مستطيعًا له ولكنه تخلف عنه وهو واجب عليه يكون آثمًا.

أيضًا في باب السمع والطاعة يجب أن نعرف أن السمع والطاعة هي قربةٌ لله تعالى، قربةٌ لله، كما أنك تتقرب بالصلاة والزكاة وبرِّ الوالدين وصلة الأرحام والإحسان إلى الجار تتقرب أيضًا بطاعة الإمام لماذا؟ لأن الذي أمرك به هو الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، فأنت الآن تطيعُ الإمامَ؛ تطيعه قُربةً وطاعةً لله. إذًا هو قربى، قربى؛ لأنك امتثلت أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك؛ ولهذا النبي صلى الله عليه وسلم قال: « من أطاعَنِي فقَدْ أطاعَ اللهَ، ومَن عَصانِي فقَدْ عَصَى اللهَ، ومَن أطاعَ أمِيرِي فقَدْ أطاعَنِي، ومَن عَصَى أمِيرِي فقَدْ عَصانِي».

والله أمر: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ إذًا لو سألْنا قلنا: ما هي القربة؟ القربة هي فعل ما أمر الله به وترك ما نهى عنه تقربًا إلى الله أو طاعة لله، فإذا سمعت وأطعت للأمير كنت مطيعًا لله يأجرك الله -عز وجل- على ذلك.

وأيضًا مما يتعلق بأمر السلطان: النصيحة له، وهذا في حديث تميمٍ الداريِّ «الدِّينُ النَّصيحَةُ» قلنا لمن يا رسول الله؟ قال: «للهِ ولكتابه ولرسولِه، ولأئمةِ المسلمينِ وعِامتِهم»، النَّصيحة له في إعانتِه وتسديده وتذكيره، إلى غير ذلك مما هو داخلٌ في حيز النصيحة.

ولكن يجب التفريق بين النصيحة والفضيحة، هذه حقيقة:

النصيحة معناها عند العلماء -عند الإمام يقول-تنصح للإمام فيما بينك وبينه، وتنصح له بحضرته وليس في غيبته. هذه النصيحة للسلطان.

وطبعًا الوسائل متعددة؛ يعني فيه أدوات التواصل الحديثة أو فيه... يعني فيه أشياء كثيرة تصل بها، أما إعلان النصيحة على الملأ والمجاهرة بها، وإخراجها مخرج الغيرة على الإسلام والدين والبلد، هذا كله باطل؛ لأن السلطان بشرٌ يغضب ويرضى ويتعب وينشط ويطيع ويعصي، بشرٌ مثله مثل بقية البشر.

وأنا سائلكم: لو أنا الآن في هذا المجلس كنت نصحت أحد الأخوة، يتكلم كلامًا. بيقبل كلام يا أخواني؟ أنا يا أخوان رأيت مقطعًا لأحد الذين من ثلاثين سنة أو أكثر هو يتكلم على الحكام يذيع النصيحة في وسائل الإعلام، فلما اتصل عليه أحد المتصلين يسدي له نصيحة في البرنامج ضاقت به الأرض بما رَحُبت وخرج عن طوعه.

بشر -يا إخوان- يجب تراعي في الحاكم بشريته هو ما جاء كما قالوا: من كوكب آخر ولا عالم آخر هو بشر مثلنا يمرض ويصح ويموت ويجوع ويعطش إلى غير ذلك. لازم نراعي هذا في الحاكم أحيانًا تغيّر مزاج الحاكم تغيّر..، فلذلك الشرع جاء بحصر الأمور وتضييقها حتى ينتفع الناس بالإمام.

وأيضـًا قلنا: الصبر على جور السلطان لا بد من الصبر على جور السلطان، النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مَن كَرِهَ مِن أمِيرِهِ شيئًا فَلْيَصْبِرْ، فإنَّه مَن خَرَجَ مِنَ السُّلْطانِ شِبْرًا فماتَ ماتَ مِيتَةً جاهِلِيَّةً».

هذا ثابتٌ في والصحيح متفق عليه، فنحن مطالبون بالصبر على السلطان.

وأيضًا في التعامل مع السلطان لا بد أن نكرَه ما يأتيه السلطان من المعصيةِ مع الوفاء بالبيعة، يعني السلطان قد يفعل معصية لأنه ليس بمعصوم، لكن هل نتقبل المعصية؟ لا ما نتقبل المعصية، نكره المعصية، يعني ما فعله السلطان على جهة المعصية نكره هذا الفعل منه، لكن هل نخرج عليه؟ لا نخرج عليه. هل ننقض بيعته؟ لا ننقض بيعته. يجب التفريق ليس معناه أننا نقول إن السلطان ما يُخرج عليه إذا فعل الظلم، ليس معنى ذلك إقرارًا بالظلم ولا تشجيعًا له عليه، ولكن نقول: إننا لا نخرج عليه طاعةً لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

طيب. هذا الظلم هل نرضاه؟ لا، ما نرضاه. هل نقبله؟ ما نقبله؟ لأن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث عوف بن مالك قال: ﴿ألا مَن وَلِّيَ عليه والٍ، فَرَآى منه شيئًا يكرهِهِ، فَلْيَكْرَهْ ما يَأْتي مِن مَعْصِيَةِ اللهِ، ولا يَنْزِعَنَّ يَدًا مِن طاعَةٍ».

فجمع النبي صلى الله عليه وسلم بينهما: تكره المعصية، ولا تنزع يدًا من طاعةٍ، طيب. لو قال لنا قائل: هذا السمع والطاعة هو للحاكم العادل ولا للجائر، فنقول للجميع وخلافة للسنة والجماعة من الخوارج المعتزلة ليس في العادل في الجائر، المعتزلة والخوارج يرون الخروج على الحاكم الظالم؛ فهم متفقون مع أهل السنة والجماعة أن الإمام العادل لا يُخرج عليه، الإمام الجائر هو محل خلاف؛ فالمعتزلة والخوارج يقولون يُخرج عليه وأهل السنة والجماعة يقولون: لا يُخرج عليه.

ولذلك الآن لما تأتي بعض الناس يتبنى مذهب الخوارج والمعتزلة، وهو لا يشعر؛ و لهذا الحاكم هذا يظلم الناس ويفعل ويفعل يخرج عليه. هذا مذهب الخوارج والمعتزلة، لو كان عادلاً ما حصل فيه خلاف أصلاً ما في خلاف أن العادل ما يُخرج عليه لكن ما هي المشكلة؟ أن

بعض الناس يقرأ في بعض الشروح يقول لك وقال فلان وفلانٌ من العلماء، ليسوا من الأئمة، وهؤلاء أصولهم معتزلة أو من الأشاعرة المتأثرين بالمعتزلة.

إذًا هي في الحاكم: البر والفاجر، والدليل عليه: أن النبي صلى الله عليه وسلم سُئل فيما -مر معنا- عن ظلم الحكام وعن استئثارهم وعما يقعون فيه من معصية، ومع ذلك أمر بماذا؟ بالسمع والطاعة لهم. هذا واحد.

الثاني: أن النبي عليه الصلاة والسلام أخبر أنه سيكون هناك من الأئمة من هم ليسوا بعدولٍ كما في حديث "فئةٍ لا يهتدون بهديي ولا يستنون بسنتي"، سأل: ماذا نفعل؟ قال: تسمع وتطيع.

وأخبر عليه الصلاة والسلام عن أئمة يُميتون الصلاة، ولما ذكروا أئمة الجوْر قالوا: أفلا نُنابذهم يعني نقاتلهم قال: لا، إلا أن تروْا كفرًا بواحًا عندكم فيه من الله برهان.

أو في حديث عبادةَ قال: «وَأَلَّا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ إِلَّا أَنَّ نرَى كُفْرًا بَوَاحًا لنَا فيه مِنَ اللهِ بِرَهَان» . كفر بواح؛ يعني: ظاهر ما فيه أدنى شك أنه كفر ولا يحتمل أي تأويل، و « عِنْدَكُم فيهِ مِنَ اللهِ بِرَهَان »: يعني دلَّ الدليل الثابت الصحيح أو الإجماع على كونه كفرًا.

فهذه المسائل يجب أن يُعتنى بها وأن يُنظر فيها نظراً صحيحًا، كما هدانا النبي صلى الله عليه وسلم لذلك، والذين يخالفون ويزعمون أن هذا خروج على الحكام من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هذه طريقة الخوارج والمعتزلة؛ لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عند المعتزلة: هو الخروج على أئمة الجَوْر.

والذي يرى من نفسه اشمئزازًا بأن يطيع الحاكم فلا يوافق الحاكم ولا يسمع له ولا يُطِيع اشمئزازَ نفسِه بذلك فهذا على خطرٍ عظيم، لأنك كأنك تقول: إن النبي صلى الله عليه وسلم أوْدَى بنا إلى الزلة والمهانة والنبي صلى الله عليه وسلم لا يمكن أن يخالف القرآن؛ لأن الله قال: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾، لا يمكن أن يخالف القرآن، فما معنى هذا الكلام؟ المفروض أنك تسمع وتطيع بنفسٍ منشرحةٍ طاعةً لله وطاعة للرسول صلى الله عليه وسلم.

ثم أيضًا أمرٌ نُنبه عليه -يا إخوان- فيه السمع والطاعة للإمام أنه إذا أمر بمعروفٍ يُسمع له ويطاع. طيب، معصية لا يُسمع له ولا يُطاع في هذه المعصية؟ ويُسمع له ويطاع في البقية. طيب، مسائل الاجتهادِ؛ فيه مسائل يصير فيها اجتهاد، مسائل عامة وفيها اجتهاد، ماذا تصنع؟

قال: ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية عنِ الله: أنَّ الإمام يُطاع في مسائل الاجتهاد، يلزم الرعية طاعته ولا يلزمه طاعة الرعية. انتبهوا في مسائل الاجتهاد، وإلا لو يمكن الأمر كذلك ماذا سيكون؟ ستكون الأمور فوضى، كل إنسان له رأي في هذه الأمور العامة ولم يعد لوجود الإمام مصلحة، لكن الشارع غلَّب مصلحة الاجتماع والائتلاف على مثل هذه المسائل، هي قضايا اجتهادية قد يكون الحق معه وقد يكون الحق مع غيره، لكن هي مسائل اجتهادية لا بد من الفصل فيها، فالقول الفصل فيها هو للإمام وليس للرعيه؛ لأنه أبصر بالأمور منهم.

نختم بعد ذلك بالتنبيه -يا إخوان- على أن هذه المسألة، ينبغي -بل يجب- ألا نُعرِضَ عنها؛ لأنها قربة نتعلم هذه المسألة؛ ثم أيضًا لا نعرِضَ عنها؛ لأننا مسؤولون عنها يوم القيامة؛ لأنها من ديننا ونحن مأمورون بطاعة الحاكم، لأن بعض الناس قد يطيع الحاكم في المعصية فيقع في الخطأ، وبعض الناس قد يعصي الحاكم في المعروف هذا خطأ، فلا بد أن يعرف هذا المنهجَ الحق.

وأيضًا يجب ألا يكون في نفسِك من هذه المسألة شيء: لا نُفور، ولا اشمئزاز، وأيضًا يجب ألا تكون حييًّا في تعليمِ هذه المسألة وإشاعتِها وإذاعتها.

بعض الناس قد يكون هو في نفسه مطيعًا؛ يسمع ويطيع، ويرى هذه الحقوق للإمام، ولكن يستحي أن يخطب جمعةً في حقٍّ عن السمع والطاعة، ولاَّ كلمة ولاَّ في وسيلة إعلام، ما يتكلم، هذا غلط -يا إخوة- وإذا صارت محنةُ الناس في السمع والطاعة جَب على أهل العلم وطلبة العلم إظهارُ هذه المسألة كما فعل السلف، السلف لما تكلم الناس وأنكروا رؤية الله تكلَّموا فيها وأذاعوها وألَّفوا فيها.

وفي "خلْق القرآن" كذلك، وفي هذه المسائل جميعًا تكلموا فيها، وأظهروها وأعلنوها وبيَّنوا الأحاديث فيها، لكن إذا كان طلاب العلم وأهل العلم لا يبيِّنونها حياءً فهذه مصيبة، وإن كان لمصلحة دنيوية فهذه مصيبة أخرى، وإن كان خشية أن يصنَّف فهذه مصيبةٌ ثالثة.

فهذه مسألةٌ مهمةٌ -يا إخوان- انتظام أمور المسلمين، لا يكون إلا بهذا، والمشغِّبون عليها كثير. في الأول كان الناس يسمعون ويطيعون ولا يعرفون للحاكم إلا لهذا، لكن الآن جاءت وسائل شرٍّ فتحت على الناس أبوابًا عظيمة من الشر فلا بد من الوقوف ضدها ومجابهتها.

الأصل الرابع: بيان العلم والعلماء والفقه والفقهاء، وبيان من تشبه بهم وليس منهم، وقد بين الله تعالى في هذا الأصل في أول سورة البقرة من قوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُم﴾ [البقرة:٤٠] إلى قوله قبل ذكر إبراهيم عليه السلام: ﴿يَا بَنِي إِسْرائيل﴾ [البقرة:١٢٢] الآية، ويزيده وضوحًا ما صرَّحت به السنة في هذا من الكلام الكثير البيِّن الواضح للعامي البليد، ثم صار هذا أغرب الأشياء، وصار العلم والفقه هو البدع والضلالات، وخيار ما عندهم لبس الحق بالباطل، وصار العلم الذي فرضه الله تعالى على الخلق ومدحه لا يتفوه به إلا زنديق أو مجنون، وصار من أنكره وعاداه وصنف في التَّحذير منه والنَّهي عنه هو الفقيه العالم.

هذا الأصل الرابع بيان العلم والعلماء يعني أن العلم والعلماء والفقه والفقهاء جاء بيانها في الشرع. طيب عندنا بيان العلم والعلماء والفقه والفقهاء.

ذكر ابن قتيبة وابن الأنباري وغيرهما أن العلم هو الفقه والفقه هو العلم، فإن الفقه معناه: الفهم، والعالم إنما كان عالمًا بفهمه أي بفقهه فأُطلق عليه أنه فقيه، وفُسِّر هذا في قول الله جل وعلا: ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ قال: يكونون علماء بالدين.

إذًا فالفقه والعلم قال بعض العلماء: معناهما شيء واحد، وقال: ذكر بعض العلماء أن العلمَ أعمُّ من الفقه، العلم أوسعُ من الفقه، وعلى كلٍّ العلم من المصطلحاتِ التي لا يزيدُها تعريفُها إلا غموضًا، وإن كانت ذُكرت تعاريفُ كثيرة، لكن كل تعريف لو أتينا به زاد المسألة غموضًا، العلم معروف والفقه معروف أيضًا.

بيان العلم والعلماء والفقه والفقهاء، المراد بالعلم هنا والفقه: هو العلم والفقه الشرعي، طيب المؤلف رحمه الله لماذا ذكر هذا الأصل؟ لأن هذا الأصل يتعلَّق بالأصل السابق، الأصل السابق قلنا فيه الاجتماع على الكتاب والسنة صح ولا لا؟ قلنا هي مسألة اتباع، مسألة فيها اتباع للنبي صلى الله عليه وسلم، والعلماء هم ورثة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فمن لم يفهم هذا الأصل يعني يعرف من هو العالم والفقيه، من لم يعرف هذا على الوجه الشرعي كان سبب ذلك في انحرافه عن رسالات الرُّسل عليهم الصلاة والسلام واقتحام البِدع والمحدَثات في دين الله عز وجل.

لأن غير العالم الشرعي الذي لا يسلك بك طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذي يسلُك بك طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم هو العالم بدين الله عز وجل.

فالإمام -رحمه الله- أراد أيضًا أن يبيِّن، يعني لما الإمام -رحمه الله- أراد أن يبين أن هذا العلم يُؤخذ عن أهل العلم ليس عن سواهم؛ لأنهم هم يدلُّونك على طريق الرسل عليه الصلاة والسلام؛ لأنهم هم ورثتهم، وبما أن هناك أصولاً مطلوبةً من المسلم وهي الأشياء التي تقدمت، فلا بد من معرفة الطريق الصحيح الموصل لها وهو العلم والعلماء؛ لأن العلماء والفقهاء هم الواسطة بين الناس وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم بما ورِثوه عنه من العلم.

ثم ذكر -رحمه الله- قال: ومن تشبه منهم: أنه لا بد أن نعرف العلماء ومن تشبه بهم، إذا عرفنا العلماء عرفنا من تشبه بهم، والمتشبه بهم ليس هو المتشبه بهم على قصدِ الاقتداء والاهتداء.

فالذي يتشبه بالعلماء في سَمْتهم وهديهم وعباداتهم هذا في حقيقته متبعٌ للسُّنة؛ لأنهم الواسطة بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعلِم السنة من أقوالهم وأعمالهم فهذا التشبُّه تشبُّهٌ محمود، وإنما يعني الإمام -رحمه الله- المتشبه بهم يعني بهم الذي تشبه بهم ولم يقتفِ أثرَهم فهو في الصورة صورةُ عالم وفي الحقيقة ليس كذلك.

مَن المتشبه بالعلماء؟ قد يكون المتشبه عابدًا لكنه ليس بعالم، وقد يكون فاجرًا وقد يكون عالمـًا فاجرًا وقد يكون منافقًا، وهذا يتبين لك بمعرفة حقيقة العلم: ما هو العلم الشرعي؟ العلم الشرعي يجمع بين أمرين؛ يجمع بين العلم والعمل.

ولهذا سعيد بن جبير لمَّا سُئل عن العالم من هو؟ ذكر فيما معنى كلامه: أنه العالم بأمر الله وبأمر رسوله صلى الله عليه وسلم وبنهيهما ويعملُ بذلك.

وفُسِّر قول الله عز وجل: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾: بأنَّ الذين لا يعلمون هم الذين لا يعملون وإن كانوا عالمين، ومن لم يعمل بعلْمه صحَّ في الشرع أن يُطلق عليه أنه جاهل؛ فمن علم ولم يعمل فهو في الشرعِ جاهل.

ولهذا ذكر الله -عز وجل- عن أهل العلم من الصفاتِ شيئًا كثيرًا؛ يعني صفات ترجع إلى العمل من الخشية والإخبات والدعوة إلى العلم واليقين بما نزله الله -عز وجل- على نبيه عليه الصلاة والسلام، إلى آخره، والشواهد في هذا كثيرة في القرآن.

إذًا فالعلم عندنا هنا بيان العلم والعلماء والفِقه والفقهاء هذا أمر مهم؛ ليتبين للإنسان مَن يعتمد عليه في معرفة دين الله، وليس كل من جاءَ بصورةِ عالم يكون عالما.

لهذا عمر رضي الله عنه يقول: يهدم الإسلام زلة عالم وجدال منافق، المنافق قد يأتي بصورة العالم وبسمت العالم لكنه منافق، وما أكثر المنافقين الذين يلبسون على الناس دينهم ويخلطون الحق بالباطل!

فخلاصة ذلك: أن المتشبِّه بالعلماء: إما الجُهال الذين تزينون بزيِّ العلماء: ضلوا وأضلوا كالنصارى، وعلماء النصارى، أو علماء السوء كحال اليهود، يعني علموا لكنهم لم يعملوا فهذا هو المتشبِّه.

ولهذا سفيان الثوري -رحمه الله- يقول: تعوذوا بالله من فتنتين: فتنةِ العابد الجاهل وفتنةِ العالم الفاجر فإن فتنتهما فتنة لكل مفتونٍ.

العابد الجاهل فتنة؛ ولهذا بعض الناس يُفتَتن بالعابد الجاهل، وهذا العابد تصدر منه بدع ويقول: لا تتعرضوا له فإنه عابدٌ ولا تنكروا عليه. هذه فتنة للإنسان، وكذلك بالنسبة للعالم الفاجرِ قد يُضل للناس ولا سيما إذا كان صاحب بيانٍ وفصاحة.

ثم بعد ذلك قال الإمام رحمة الله عليه: وقد بيَّن الله هذا الأصل في أول سورة البقرة من قوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ إلى قوله قبل ذكر إبراهيم: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ الآية.

وهذا المقدار يَنيفُ على نصفِ جزء، وهو لفتة من المؤلف -رحمه الله- لأن يتدبر القارئ كتابَ الله؛ ليعرف ما ذكره الله من الصفات التي ينبغي أن تكون في العالم، والصفات المذمومة في العالم.

وهو أحال، ذَكرَ الآيات ولم يذكر استنباطاته منها، والآيات طويلةٌ وكثيرة، لكن يمكن أن نذكر بعض الجمل التي يمكن أن يكون المؤلف -رحمه الله تعالى- أرادها. يمكن يعني الله أعلم منها أن في هذه الآيات فيها الاعتماد على الوحي دون غيره، هذا يدل على أن المطلوبَ في العالم أن يدلَّ الناس على ما دلهم عليه الوحي؛ يعني يكون اعتماده على الكتاب والسنة، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾.

هذا تشريع من؟ تشرع رب العالمين، نزل عليه الوحي: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ أحالَ على أمر الله عز وجل.

وقال تعالى: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ﴾.

والله -عز وجل- يقول: أو جعل الله -عز وجل- الأهواء مُقابلة لما أنزله الله عز وجل: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾ هذا الوحي ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾.

إذًا هو إما وحي وإما هوى؛ فأهل العلم يرشدونك على الوحي وإذا رأيت الذي يفتي بهواه فليس من أهل العلم؛ ولذلك بعض أهل العلم ينكر هذه الآراء، أرى كذا أرى كذا ينكرها؛ لأن المسألة مسألة شرع وليست مسألة رأي.

الله يقول للنبي صلى الله عليه وسلم: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾.

ما قال بما رأيت، ﴿بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾، وهذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقال تعالى في هذه السورة: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ هم اعتاضُوا بالسحر عن المنزَّل، فأنكر الله عليهم فلم يعتمدوا على الوحي وجنسه، من لم يعتمد على الوحي بأقيسة فاسدة أو بعقول أو بآراء كلها تدخل في هذا.

الثاني: مما أرشد إليه المؤلف هو ما ذكره الله بقوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾؛ يعني أوفوا بعهدي بماذا؟ بالعمل بهذا العلم وبيانه؛ فالعالم يكون عاملاً ومُبينًا عن الله.

في العمل: قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ العهد الذي أخذه الله عليهم: لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ ووفاء الله بعهده لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ.

وفي العلم: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾، وهذا لهذا يجب الوفاء بهذا العهد.

وأيضًا من صفاتهم: الإيمان بجميع المنزل: ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾، ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ﴾: عَامَّةً، فشمل جميع المنزَّل، وهكذا العادة.

وذمَّ الله -عز وجل- مَن كان خلاف ذلك: ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾.

ومنها أيضًا: الخشية والعمل ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونَ﴾، ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونَ﴾، ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾، ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفسٍ﴾ كلُّ هذا يورد في هذه الآيات، وهي كثيرة جدًّا.

ومنها أيضًا: لِين القلب وخضوعُه للحق؛ لأن الله -عز وجل- ذمَّ من لم يكن كذلك، قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾.

ومنها أيضًا: ألا يتناقض قولُه مع فعلِه: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

ومنها: أن العالم لا يستكبر ولا يعرض عن الحق خلافًا لمن ذمهم الله ﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ﴾، ولهذا العالم إذا تبين له الحق لم يستكبر ورجع إليه وإذا عرضت عليه الأدلة لا يُعرض عنها: ينظر في هذه الأدلة لعلها لا توافق ما معه.

ومنها أيضًا من صفات أهل العلم: موافقةُ الحق بعد العلم به؛ لأن الذين ذمَّهم الله قد خالفوا الحقَّ بعد أن علِموه: ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ ﴾ بدلوه لماذا؟ بدلوه؛ لأن الله عز وجل قبل هذا، قال الله عز وجل: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾، هم ما وافقوا الحقَّ بعد ذلك، ما دَخلوا الباب سُجَّدًا، دخلوه وهم يزحفُون على أدبارهم.

وما قالوا "حِطة" يعني ما قالوا: حُط عنَّا ذنوبنا، لكن قالوا كلمةً لا معنى لها قالوا: "حبَّةً في شَعْرة" أو في شعيرة، ولا معنى لها، إذًا ما وفقوا، ذمهم الله؛ لأنهم ما وفقوا الحق.

﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ اتخذوا العجل بعد ما جاءتهم البينات يعني: ما وافقوا الحق.

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾.

ومنها أيضًا: أن أهل العلم لا يتطلَّبون المُحال ولا يتعنَّتون؛ لا في سؤال ولا في غيره، وهذا خلافًا لمن ذمَّهم الله: هل ﴿تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾، وما أكثر المسائل التي طرحوها على موسى عليه السلام، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾، كلُّ هذا تعنُّت وجرأه على الله عز وجل.

ومنها أيضًا: أن يكون الحكمُ والافتاء عن علمٍ، وهذا كما مرَّ معنا: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ﴾ صدرَ عن علمٍ.

ومنها أيضًا: أخذَ المنزَّل بجدٍّ واجتهادٍ في تعلُّمه وتعليمِه والعمل به: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾، والذي يأخذ العلمَ مثلما يقع الآن، يعني بعض الذين يعلمون: ينقلبُ العلمُ الشرعي إلى الضَّحك، أو واحد داعية يدعو الناس بالضَّحك والهرج، أو آخر يُفتي الفتوى شأنها عظيم، وفي نُكت يضحك للناس، هذا لو يعقل معنى الفتوى ويوقن يقينًا جازمًا بوقوفه بين يدي الله، وسؤاله عنها.

ما فعل ذلك السلف، كانوا إذا سئل أحدُهم فتوى اصفرَّ وجهُه واحمرَّ وحَوْقل ودفَع الفُتيا عن نفسه، فالذي يفتي ويضحك هذا ترى -يا إخوان- هذا لا يُؤخذ عنه العلم، هذا مستهين بأمر الفتوى، الفتوى ﴿قُلِ اللهُ يُفْتِيكُم﴾.

المُفتِي نائبٌ عن الله في الفتوى، أمر عظيم، يعني تقول: إن الله يقول كذا، هذا حلال، يعني هذا أحله الله، كيف تصير ضحكًا؟، فالعالم يُعرف حتى بسَمتِه، يعني الذي يفعل هذه الأشياء هذا لا يؤخذ منه العلم ولا الفتوى، هذا إما مستخفٌّ وإما جاهل، لا يعدو عن هذا.

توقفنا قبل الصلاة في الأصل الخامس وذكرنا ما بيّنه الله -عز وجل- في معنى الولاية، ذكرنا آية يونس، وتوقفنا في آية آل عمران: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾ ذكرنا أن هذه الآية تقتضي للولي أن يكون متبعًا لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- حتى يحبه الله -عز وجل-، وأيضا يثبت به محبته لربه؛ لأن الله جعل الاتباع لنبيه -صلى الله عليه وسلم- شرطا في محبته -جل وعلا-، وجعل محبته -جل وعلا- ثمرة لمن اتبع النبي -صلى الله عليه وسلم-.

ولا شك أن الأولياء يحبهم الله بدلالة الآية التي بعدها في سورة المائدة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾

إذن فولي الله -عز وجل- يحبه الله، لماذا أحبه الله؟ لأنه آمن واتقى وعمل الصالحات، وهي مذكورة في ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ هذه كلها من عمل الصالحات الداخلة في التقوى وهي أيضًا داخلة في اتباع النبي -عليه الصلاة والسلام-.

فعُلم به أن الوليّ هو المتبع للنبي -صلى الله عليه وسلم- وهو المؤمن التقي، ولن يكون أحد مؤمنا تقيًّا إلا إذا اتبع النبي -صلى الله عليه وسلم-.

وكل من أحبه الله فهو ولي له -جل جلاله-؛ لأن الولاية فيها معنى المحبة والقرب، فوليّ الله: أي هذا قريب من الله محبوب من الله، وهذا يصدق عليه الآيات التي ذكرها المؤلف -رحمه الله- وقد بيّن بعضها بعضا، هذا هو الوليّ في المصطلح الشرعي.

نأتي الآن إلى هذا الولي.

هل الله -عز وجل- ذكر أن الولي لا بد أن تكون له كرامة؟

لم يذكر هذا، الكرامات للأولياء حق، يثبتها أهل السنة والجماعة، ولكن ليس كل ولي تظهر له كرامة؛ ولهذا الجيل الأول، القرون الأولى، وهم كانوا -في ما نظن- كثير منهم أو كلهم أولياء الله -عز وجل- لم ينقل عنهم من الكرامات شيء كثير، المنقول الثابت قليل، وكثير من المنقول لا يصح.

ولكن الكرامة ليست ملازمة للولاية، بمعنى أن كل ولي لابد أن تظهر له كرامة، هذا ليس بصحيح.

وخوارق العادات ثلاثة:

آيات الأنبياء، هذه للرسُل.

وكرامات الأولياء، هذه للصالحين.

وأحوال شيطانية.

فالكرامة تظهر على وليّ الله، وهي أمر يُجريه الله على يد عبده كرامةً له.

إذن الكرامة ليست شرطا للولاية.

هل من شروط الولاية أن الوليّ يعلم الغيب؟ لا.

هل من شرطه أنه يتصرف في الكون؟ لا.

هل من شرط الولي الذي ثبتت ولايته أنه ترتفع عنه التكاليف إذا بلغ حدًا معيّنًا من العبادة؟ لا.

إذن الولاية ليست لها شروط، شرطها الإيمان والتقوى، شرطها الاتباع فقط، ليس هناك شرط آخر، والكرامة قد تحصل وقد لا تحصل، وأما غيرُها، ما يُضفى على الأولياء،

فهو من الباطل والخرافات والضلالات، الأولياء كما قلنا بعضهم أضفى عليه تصرفًا في الكون، وخلق ما في الأرحام؛ ولذلك عندهم أسماء، الأقطاب والأغواث والأوتاد والنجباء والمجاذيب وإلى آخره، هؤلاء لهم تصرف في الكون وعلم الغيب، وبعضهم، يقولون: -في التراجم هذا موجود- أنه يقول للشيء كن فيكون، لكن ما اظن واحدًا منهم يستطيع يقول

يخرج إسرائيل من فلسطين، كُن فيكون، أو إذا جاءت المجاعات يقول: كُن: تنزل السماء مطرًا عليهم، صحيح أم لا؟ هذا كله كلام يا إخوان، لكن هذا موجود، وهذه شركيات، شرك في الربوبيّة، ومنهم من يزعم أنه يأخذ عن الله بلا واسطة، يكلمه الله.

هؤلاء موجودون الآن، من ضمنهم هذا، عبد الله كولن، صاحب تركيا، يقول: أنا آخذ عن الله بدون واسطة، يسمع من الله مباشرة.

والعجب أنهم مُتناقضون، فيهم -بعضهم- من لا يُثبت صفة الكلام لله، يقول: هو كلام نفساني، عن القرآن المنزل كلام نفساني، عندهم الله ما يتكلم، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا، هذا مثل الأبكم، لما يتكلم لا بُد أن يعبر عنه الملك أو هو يخلق الكلام في لوح أو نحو ذلك.

لكنهم إذا بلغ منهم واحد مرتبة -كما زعموا- قالوا يسمع من الله مباشرة، فوصفوا الله هناك بصفة التكليم، وهنا نفوا عن الله يوم كان على رسوله وعلى أنبيائه -عليهم الصلاة والسلام-.

الشاهد منهم من يزعم أنه يأخذ عن الله بلا واسطة، منهم من يزعم أنه يعلم ما في اللوح المحفوظ، ومنهم من لا يفعل التكاليف الشرعيّة، بل يقع فيما حرّمه الله ورسوله -صلى الله عليه وسلم- ويفعل الفواحش جهارا ولا يحل عندهم الإنكار عليه.

هذا موجود في طبقات الشعراني وطبقات ابن الملقن وكلام الشاذلي والتيجاني.

وأحد المعاصرين الموجودين الآن يخرج على اليوتيوب، يقول: الناس في الأوراد التي عندهم -يقول- فيها طلاسم ما يفهمُها الناس -والحمد لله، أنها طلاسم، سحر- يقول: فاستأذنت النبي -صلى الله عليه وسلم- يقظةً أن أشرح هذه الطلاسم، ولذلك بدأت أشرح لكم.!

النبي -عليه الصلاة والسلام- ميت، اجتمع به يقظة، أبو بكر أحق أن يجتمع به يقظة، وعمر وأزواجه وأصحابه.

الشاذلي أبو الحسن هذا شيخ طريقة من الكبار يقول: لو حُجب النبي -صلى الله عليه وسلم- عني طرفة عين ما كنت من المسلمين، هو يشاهد النبي -صلى الله عليه وسلم- يقظةً في كل وقت، وليس مرة بعد مرة، في كل وقت، يقول لو حُجب عني طرفة عين ما كنت من المسلمين.

لأنهم يرون أنفسهم أرفع من الأنبياء.

في أحد مجالس الفقه، كان مدرس فيها يُدرس، من مشايخ الفقه، فأورد حديثًا، وقال أحد من يزعم أنه ولي: هذا حديث باطل، فقال له: من أين لك هذا الكلام؟

قال هذا النبي -صلى الله عليه وسلم- واقف على رأسك.

طيب النبي -صلى الله عليه وسلم- مخلوق من ماذا؟ مخلوق من طين، وإلا ما كان من البشر.

لو كان مخلوقًا من نور كان من الملائكة، كما في صحيح مُسلم، إذَن مخلوق من طين، بشر هو من بني آدم.

طيب هذا يقول: يقف فوق رأسك.!

ما أحد من الناس يراه إلا هذا.

أحوال شيطانية ودجل وكذب.

حتى أن ابن سبعين -لعنة الله عليه- يقول: لقد تحجر ابن آمنة واسعًا، يعني النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ لأنه جاء بختم النبوة.

وأظن الحلاج كان يقول: أنه سيأتي إلى جبل، إلى غار حراء يخلو فيه حتى يأتيه الوحي!

والآخر يقول إنه اطلع على الجنة، ولم يرَ فيها شيئا حسنا.

هذا موجود في الكتب، كتب موثقة لهم.

والآخر يقول، الشعراني عن شيخه، يقول: الزاهد في الدنيا والآخرة.! ما يريد حتى الجنة.

وهذه حقائق موجودة، وهؤلاء المجاذيب موجودون الآن وتراه في أقبح صورة، وهيئته هيئة فيها من الأوساخ والنجاسات ما الله به عليم، وهذا من المجاذيب، هذا وصل مرحلة الجذب، هذا من الأولياء، وهو إنسان ذهب عقلُه بهذه الأشياء.

فهؤلاء يقولون: هذه صفة الأولياء، هؤلاء عندهم من الأولياء، لكن المؤمن التقي ليس من الأولياء، لماذا؟ لأنك لا تعلم إلا علم الظاهر، ما تعلم الباطن.

هم يقولون: لكم الظاهر ولنا الباطن، لكم علم الشريعة ولنا علم الحقيقة، فهم باطنية كذابون أفاكون ويزعمون الولاية.

بل ذكروا في أحمد البدوي، طبعا لا يشهد جمعة ولا جماعة، هو مُتلثّم، ثم إنه يوما نزل في يوم الجمعة وقف عند المنبر وتعرى ثم ذهب.

ومنهم من يأتي البهائم في الأسواق علانية، ويقولون: هؤلاء أولياء الله.

وهذه الأشياء موجودة وما زالت.

وأنا شاهدت أحدهم، لأني كنت أستغرب بعض الأحيان وجود مثل هذه الشركيات والخرافات ممن يُزعم أنهم أولياء، كنت أستغرب بعضها، يعني ما أتصورها، فسألت أحد الإخوة في بعض البلدان، وأرسل لي مقطعًا لأحدهم، ممن يزعم أنه ولي وهو شيطان، ليس بوليّ، جاءه ناس، خادمون، وقفوا، يقولون له: جئناك من مكان بعيد نرجو أن تغفر لنا ذنوبنا!

لماذا يقولون هذا الكلام؟

لأنهم ما يتصورون أن هذا مخلوق، هذا حل فيه الخالق.!

الخالق عين المخلوق.! والرب هو المربوب.! والعابد هو المعبود.! هؤلاء أهل الحلول ووحدة الوجود، يقولون هكذا، فهم يأتون له على أنه هو الله، هذا أفسد حتى من النصارى ومن غيرهم.

يقولون هذا هو الله، طيب هؤلاء يقولون: هؤلاء هم الأولياء.

فالتبس الأمر على كثير من العامة، فصاروا يعتقدون فيهم اعتقادات فاسدة، منها اعتقاد أنهم وسائط عند الله، يقولون: هؤلاء أولياء الله، لهم من المقام والجاه عند الله -عز وجل- لهم مقام عظيم عند الله، فنحن نجعلهم واسطة بيننا وبين الله بدعائهم، فنتقرب إليهم بما يحبون، وهم يرفعون أعمالنا إلى الله، ولهذا حين ترون هؤلاء الذين يسمون أولياء، هذا لا يشهد جمعة ولا جماعة ولا صلاة، وعنده من الفجور ما الله به عليم، هذا جالس يأتون، يعطونه أموالًا، هذه الأموال لماذا؟ حتى يرضى عنهم، إذا رضي عنهم ما معناه؟ توسط لهم عند الله -عز وجل-.

وهذا شرك المشركين ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾، ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ﴾، ﴿اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ قُرْبَانًا آلِهَةً﴾.

فهنا الخطأ في فهم الولاية أدى إلى الوقوع في الشرك.

ثم هؤلاء الذين يزعمون الولاية، بعضهم له أوراد وله عبادات، من أين جاء بهذه العبادات؟ حدثني قلبي عن ربي، يأخذ بلا واسطة فيشرع شرائع، أوراد وعبادات وأذكار، يعرضون عن هدي محمد -صلى الله عليه وسلم- ويأخذونها، هذه مبتدعة، إذَن هم لما فُهمت الولاية خطأ وحُرّفَت، آل الأمر الى هجر اتّباع النبي -صلى الله عليه وسلم-، وتقليد هؤلاء الطواغيت.

وهذا الأصل أراد الإمام أن ينبّه عليه، لماذا؟

لأنه يتعلق بالأصل الأول، ويتعلق بالأصل الثاني، وحتى يتعلق بالأصل الثالث؛ لأنه من كان حاله هكذا لا يمكن أن يكون لهم اجتماعٌ على الحق.

طيب، هذا الذي ذكره الإمام -رحمة الله عليه- هذا واضح في المسألة.

ثم قال الإمام: ثم صار الأمر عند أكثر من يدعي العلم وأنه من هداة الحق وحفاظ الشرع: إلى أن الأولياء لا بد فيهم من ترك اتباع الرسل، كما قلنا لكم قبل قليل، ومن تبعهم يعني الرسل، فليس منهم -أي ليس من الأولياء-، يعني إذا كنت على الجادة وتتبع السنة ولا تتبع ما أحدثه هؤلاء، فأنت لست من الأولياء؛ لأنك تعلم علم الظاهر فقط فلا تعلم علم الباطن.

لأنك تتعامل مع الله بالظاهر الذي هو الشرع.

قال: ولا بد من ترك الجهاد، فمن جاهد فليس منهم، يعني فمن جاهد فليس من الأولياء.

والله ماذا يقول؟ ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾

هذه صفة الأولياء، هم على النقيض من ذلك، ولهذا النصارى لما استحلوا واستعمروا بلاد المسلمين، كان الذي قدم لهم بلاد المسلمين هدية هم هؤلاء المتصوفة الذين يزعم هؤلاء أنهم أولياء.

ولا بد من ترك الإيمان والتقوى المذكورة في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾

لماذا؟ لأنهم يقولون: الولي لا بد أن يكون له تصرفات وعلم بالغيب، ولا بد أن يكون له كذا وكذا مما يزعمون أنها كرامات، وهي أحوال شيطانية، إذن إذا فعل ذلك ترك الإيمان والتقوى، فمن تقيّد بالإيمان والتقوى فليس منهم، -أي عندهم ليس من الأولياء- وهذا مخالف للقرآن، القرآن صريح: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾

قال الإمام: يا ربنا نسألك العفو والعافية إنك سميع الدعاء.

وهذا أمر عظيم، أن الإنسان يسأل الله العفو والعافية عما وقع فيه هؤلاء؛ لأن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، وليس للمرء تعلق إلا بربه -عز وجل-، ولخطورة هذه المسألة قال الإمام هذا الدعاء، لأنها مما يلتبس على عوام المسلمين.

وهذه القضية هي قضية الولاية هي الدامغة لهؤلاء الصوفية وغيرهم في دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

وقامت قيامتهم على الشيخ محمد بن عبد الوهاب على هذه المسألة بالذات، لأن هذه المسألة لها ارتباط بالإخلاص، لها ارتباط بالاتباع، وأيضا فيها حظوظ لأنفسهم؛

لأنهم يزعمون أنهم أولياء، فينتفعون منها منافع دنيوية، من مال وجاه، ويلبسون بها الحق بالباطل ويحرفون الكلِم عن مواضعه.

فلما جاء محمد بن عبد الوهاب يبطل ما هم عليه من هذا، قامت قيامتهم على الشيخ، واشتد أمرهم عليه، ورموه بالعظائم، وكفروه وحاربوه، لكن الحق يبقى بفضل الله ﴿الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾ هذا للرسول ولأتباع الرسول -عليه الصلاة والسلام- من دعاة الحق ومنهم الإمام المجدد -رحمه الله-.

تفضل.

قال رحمه الله: الأصل السادس: ردّ الشبهة التي وضعها الشيطان في ترك القرآن والسنة واتباع الآراء والأهواء المتفرقة المختلفة، وهي أن القرآن والسنة لا يعرفهما إلا المجتهد المطلق، والمجتهد هو الموصوف بكذا وكذا، أوصافا لعلها لا توجد تامة في أبي بكر وعمر، فإن لم يكن الإنسان كذلك فليعرض عنهما فرضاً حتماً لا شك ولا إشكال فيه، ومن طلب الهدى منهما فهو إما زنديق وإما مجنون؛ لأجل صعوبة فهمها، فسبحان الله وبحمده، كم بيَّن الله سبحانه شرعاً وقدراً خلقاً وأمراً في رد هذه الشبهة الملعونة من وجوه شتى بلغت إلى حد الضروريات العامة، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ * وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ * وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾

آخره، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين.

هذا الأصل السادس يتعلق بهذه الشبهة التي ذكرها الإمام -رحمه الله-، فما مراد الشيخ -رحمه الله- من ذكر هذا الأصل؟

مراد الشيخ -رحمه الله- بهذا أن يبين أن هناك من يقرر أن الكتاب والسنة هي الأصل في التشريع، وما عداهما راجع إليهما، ومردود بهما، يقرر هذا الأصل، وهذا الأصل صحيح لا إشكال فيه.

لكن عندهم شبهة، ما هذه الشبهة؟ الشبهة يقولون: هذا الكتاب والسنة يجب الصدور عنهما ويجب رد كل قول مخالف لهما، لكن لا يفهم الكتاب والسنة إلا المجتهد المطلق، والمجتهد المطلق له صفات، وهم نزر في الأمة قليل، هناك مُجتهد مُطلق ومجتهد مُقيد، المجتهد المطلق هو مجتهد الشريعة كلها، والمقيد مُقيد في المذهب أو بمسألة وحكم، هم يقولون القرآن والسنة لا يفهمها إلا المجتهد المطلق، طيب من هو المجتهد المطلق؟ ذكروا فيه صفات علمية كثيرة مذكورة في أصول الفقه، واختلف الأصوليون في بعضها، تنازعوا فيها مقدار ما يحفظه من القرآن والأحاديث، والناسخ والمنسوخ، والإجماعات، وطرائق الاستنباط، إلى آخره.

الشاهد أنهم قالوا: ما يفهم القرآن إلا من كان بهذه الصفة، إذن فغالب الأمة لا يحق لهم أن يفهموا القرآن والسنة، من الذي يفهم القرآن والسنة؟ عن طريق الاجتهاد المطلق، رجعنا إلى ماذا؟ رجعنا إلى التمذهب المتعصب، ورجعنا إلى ما هو أغلى من ذلك، وهو نصب إمام مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم-

الإنسان في قبره يُسأل عن نبيّه، ما يُسأل عن إمامه.

تُسأل عن نبيك، لأنه الذي أرسل إليك، لن تسأل لا عن الإمام أحمد في قبرك ولا عن الشافعي ولا عن أبي حنيفة ولا عن مالك ولا عن غيرهم -رضي عنهم-، لن تسأل عنهم، ستسأل عن نبيك محمد -صلى الله عليه وسلم-.

والله يسألك ﴿مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾

هذا السؤال.

هؤلاء حجروها في طائفة بصفات معينة، وبقية الأمة ولو كانوا علماء لا يحق لهم الاستنباط والفهم منها أبدا، يقرؤون لماذا؟

للبركة، وليس للفهم.

طيب، قول الله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾

هذا خطاب للنبي -عليه الصلاة والسلام- ليدّبّروا، من الذين يتدبرون؟ هم الذين آمنوا به -عليه الصلاة والسلام-

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ لمن الخطاب؟ للذين بُعث فيهم النبي -عليه الصلاة والسلام-، وهل قال الله: كل واحد منهم مجتهد مطلق؟

هذه شبهة جيءَ بها لصد الناس عن فهم القرآن والسنة، هناك مجتهد مطلق في الشرع، وهناك ضوابط، لكن لم يقل أحد من أهل العلم المعتبر بهم الذين يُرجع إليهم -ليس من أهل الخرافات ولا أهل البدع- أن الفهم محصور عليه، ليس محصورا عليه، ولهذا لا زال العلماء -رحمهم الله- يستنبطون من الكتاب والسنة ويستشهدون.

لكن هنا قضية مهمة، أن القرآن والسنة ليست كلأ مباحا، من أراد فسرها على ما يشاء بدون أن يكون عنده أي أهلية للعلم، هذا خطأ، العلم فيه شيء واضح تفهمه العوام،

وهناك علم يختص به أهل العلم، فالذي يختص به أهل العلم لا يجوز للعامة النظر فيه والاستنباط.

يعني مثلاً الآن عندنا قضايا مشهورة، مثل قضية تدبر القرآن، من الذي يتدبر القرآن؟ تدبر القرآن على نوعين: بمعنى فهم القرآن، تفهم القرآن مما ذكره أهل العلم في كتب التفاسير، تفهم معنى الآيات.

والمعنى الآخر هو استنباط شيء لم تكن مسبوقاً إليه.

ثم نرى بعض من لا يحسن العلم، وربما كان في أول الطريق أو نحو ذلك وتُصَدّر كتب بعنوان: تدبر القرآن.

وهو الذي استنبط من القرآن دون أن يكون له أي مرجع سابق، تدبر القرآن ليس بهذا الشكل، تتدبر القرآن ولو تدبرت لنفسك يلزم أن تعرضه على أهل العلم، وليس كل ما عرفته وعلمته كتبتَه، في جوّال أو في وسيلة أخرى، خطأ يا إخوان.

تدبر القرآن له آلة، من لم تكن عنده هذه الآلة ربما جعل آيات الله تعالى متناقضة، وربما استنبط ما يُذهب بلاغة القرآن، لأنه ليس جاريا على سنن العرب، وربما استنبط أحكاما، وأحل وحرّم، دون أن يكون له سابقة في ذلك، أو افترى على الله وعلى رسوله -صلى الله عليه وسلم- في الأخبار.

فالمسألة ليست بالتضييق الذي ذكروه، وليست بالإطلاق الذي يسلكه بعض الناس اليوم، المسألة مسألة شرعية، هذا كتاب الله وسُنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، هناك آلة لفهمها، من كانع عنده آلة يفهم ويستنبط، من لم تكن عنده آلة يأخذ الفهم من أهل العلم، والدرجة العليا هي لأهل الاجتهاد المطلق.

المقصود أن هذه الشبهة التي وضعوها هي موجودة، ولذلك تقرأ، تجدهم يقرؤون البخاري مثلا في ثلاث ليال، ليست قراءة تدبر، قراءة هذرمة، للبركة فقط، دون أن يكون هناك تدبُّر وتفقُّه للمعاني، لأنهم لا يرون أنهم أهل لذلك، لوجود هذه الشبهة.

فالإمام محمد بن عبد الوهاب أراد أن يبين -رحمه الله- أن هذه الشبهة كما قال: الشبهة الملعونة، أنها هي التي حجبت كثيراً من الناس عن الاتباع، وحجبَت كثيراً من الناس عن كشف ضلالات هؤلاء المحرفين، ممن حرفوا معنى الولاية، أو حرفوا معنى العلم، أو حرفوا معنى الإخلاص، أو حرفوا المعاني الأخرى، لأن هذه الشبهة صارت عائقًا دون كشف ضلالات هؤلاء، فهم وضعوها لألّا تُكتشف ضلالاتهم، فحالوا بين الناس وبين العلم بهذا السبب ولهذا ذكر بعض علماء المالكية، في القرن الثامن -تقريبا- أن الصوفية أول ما يبدؤون بتجهيل الناس.

لماذا؟ لأنك إذا جهلت راجت سوق المبتدعة عندك، وإذا علمت كسد سوقهم، فلذلك وضعوا هذه الشبهات.

قال الإمام: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ﴾

استشهد بهذه الآية، يعني أكثر الناس مضى فيهم القدر أنهم لا يؤمنون، هذا نص القرآن ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ﴾

يعني إما أن تكون أيديهم غلت إلى أعناقهم حتى وصلت الأذقان فصاروا مُقمحين، يعني صار رأسه مُرتفعًا لا ينزل، وهذا مثل لهؤلاء، لأنهم صارت رؤوسهم كأن رؤوسهم قد ارتفعت فلا يُبصرون ما أمامهم من الحق والهدى.

أو أن الأغلال كانت كبيرة، وهو ظاهر، أن الأغلال التي وُضعت كبيرة وتحت الأذقان فمنعتهم من النظر، فصارت رؤوسهم مرتفعة.

قال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ * وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا﴾ يعني مانعا ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ﴾ يعني جعلنا على أبصارهم غشاءً فهم لا يبصرون الحق.

لأن هؤلاء مضى فيهم القدر، الله قد علمه، وهذا في أكثر الناس، وأكثر الناس لا يؤمنون، وأكثر الناس لا يعلمون، بنَص القرآن.

قال: ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لماذا؟ لأنهم قد حق عليهم القول.

وهكذا كُلْ مَنْ تَمَسَّكَ بِبِدْعَةٍ وَلَمْ يَرْجِعِ إِلَى هُدَى اللهِ فَهُوَ حَالُهُ كَحَالِ هَؤْلَاء وَصِفَتُه صفةُ هؤلاء.

ثم قال في شأن المتبعين: ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ يعني اتبع ما أنزل الله، وهؤلاء أهل الاتباع. ﴿وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾

فهو ترغيب في الاتباع وفهم معاني كتاب الله وسنة نبيه -صلى الله عليه وسلم-، وترهيب من الإعراض عن ذلك.

وبهذا تتم هذه الأصول الستة، نسأل الله -عز وجل- أن تكون نافعة لنا ولكم وللعباد الصالحين.

كما أسأله -جل وعلا- أن يغفر للإمام الشيخ -رحمه الله- ويُسكنه فسيح جناته، وأن يجزيه عنا وعن المسلمين خير الجزاء.

والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.